زكي خيري

مُراجعات ماركسية

اعداد: سعاد خيري

زكي خيري

مراجعات ماركسية

اعداد: سعاد خيري

تـقـديـم

عمل زكي خيري طول حياته من اجل تطوير معارفه بالماركسية اللنينية منذ ان ادرك بانها الاساس الفكري لتحرير شعبه والانسانية، الاهداف التي كرس كل حياته من اجل تحقيقها وانكب على دراستها بمثابرة الطالب المجد حتى اخر يوم من حياته. وكم بذل من جهود وامكانيات من اجل جمع مصادرها، وكم عانى من مصادرة مكتباته العديدة او اتلافها من قبل عائلته خوفا من مداهمات الشرطة. وكم جال في مكتبات استوكهولم ولاسيما مخازن الكتب المستعملة لكي يجمع مؤلفات لينين وغيرها من الكتب الماركسية. وفي الليلة الاخيرة وقد عزّ عليه النوم إذ استحال عليه التمدد في الفراش لشعوره بالاختناق جلسنا سوية في غرفته وامامنا مكتبته التي اصبحت عامرة فقلت له:- ها ان مكتبتك اصبحت عامرة! اجاب:

لا يزال ينقصها ثلاث من مجلدات لينين وبقية مجلدات ماركس التي جلبت منها ثلاثة من يتوبوري.

وكان ذلك، في اوائل كانون الثاني ١٩٩٥ بدعوة من منظمتنا فيها، قبل شهر من رحيله فقط.

وزكي خيري قاريء محترف فهو يواصل القراءة لساعات طويلة وبتركيز عال. فكان ينغمر في القراءة ناسيا كل شيء ولا سيما كتب الفلسفة مما اكسبه قابلية على التعميم والتنظير، فضلا عن امكانية تحديد الحلقة المركزية

في القضايا السياسية التي يتوقف على تحديدها صياغة الشعارات والمواقف السياسية الصحيحة.

وذاد زكي خيري دائما عن الماركسية اللينينية وحضر الكثير من المؤتمرات النظرية وله مساهمات كثيرة في هذا الميدان منشورة في عدة لغات ضمن المجموعات المكرسة لتلك المؤتمرات. ولا يمكن حصر مناقشاته الحيوية للقضايا الفكرية في مجلة قضايا السلم والاشتراكية، المجلة النظرية للحركة الشيوعية العالمية. على الرغم من ضآلة ما نشر له فيها، فقد عمل فيها زكي خيري لدورتين لمدة سنتين لكل منها وكان ممثل الحزب الشيوعي العراقي فيها وعضو مجلس تحريرها.

كان تأثره بانهيار الاتحاد السوفيتي والكارثة التي منيت بها الحركة الشيوعية العالمية عميقا ولكنه لم يهتز او يفقد الثقة او العزيمة او وضوح الرؤية بل على العكس فقد انكب يبحث عن الاسباب مستندا الى النظرية الماركسية. واستطاع ان يشخص الاسباب الرئيسة في بحوث ومداخلات عديدة كما انكب على البحث عن سبل الخروج من المحنة وذلك بتجديد الحركة الشيوعية من خلال تطوير النظرية الماركسية وتجديد وسائل واساليب عملها وفقا لتطور الظروف وبالاستناد الى الماركسية اللينينية ومنهجها المادي الدياليكتيكي التاريخي، وليس بالتخلي عنها او تشويهها او تجزئتها. والتصدي للحلول المبتسرة والاستنتاجات الخاطئة التي لا تساعد على الخروج من الكارثة بل الى تعميقها كالتخلي عن النظرية الماركسية الاساس الفكري للحركة الشيوعية مما يؤدي الى ضياع الاساس الفكري الذي اثبت جدارته بما قدمت الحركة الشيوعية من انجازات للبشرية خلال تاريخها الذي لا يتجاوز القرن رغم كل الاخطاء التي ارتكبتها والناجمة عن خطأ تعاملها مع النظرية وعدم تطويرها. مما ادى الى الازمة الراهنة في الحركة الشيوعية وانهيار اثمن منجزاتها المنظومة الاشتراكية.

ان السبب الاساسي للازمة العامة للحركة الشيوعية بما فيها الاحزاب التي كانت حاكمة في البلدان الاشتراكية: عجزها عن مواكبة التطور الاقتصادي الاجتماعي العاصف الذي فرضته الثورة العلمية التكنولوجية والتي بدورها فرضت على الحركة الشيوعية مهام جديدة على الصعيد الوطني والعالمي. وتطلب النهوض بها تجديد الحركة وكل حزب فيها فكريا وسياسيا وتنظيميا، الامر الذي تؤكده الماركسية اللينينية: الهوية الفكرية للحركة الشيوعية ومرشدها في تحرير البشرية من جميع اشكال الاستغلال والاضطهاد. ولكن العوامل الذاتية التي تميزت بالجمود العقائدي والتحريفية وترهل الاحزاب الشيوعية الحاكمة وسيطرة البيروقراطية على قيادة الحزب والدولة مما يعني خروجها عن الماركسية اللينينية نظريا وممارسة، فضلا عن الخمول والاتكالية في الاحزاب الاخرى هو الذي ادى الى الازمة العامة في الحركة الشيوعية والى انهيار المنظومة الاشتراكية. والسبيل الوحيد للخروج من هذه الازمة هو معالجة هذه العوامل الذاتية.

وشخص زكي خيري الحلقة المركزية في النضال للخروج من الازمة: وذلك بالدفاع عن الماركسية اللينينية وفلسفتها المادية الديالكتيكية، فيقول في بحثه هذا: وفي الازمة الراهنة وهي اعمق بما لا يقاس عن ازمة (١٩٠٥-١٩٠٧) اثر فشل الثورة الروسية الاولى، جراء السقوط من ارتفاع اعلى بما لايقاس، يجب ان يكون المنطلق تجديد الماركسية اللينينية على اساسها الفلسفي، وإلا كان التجديد مسخا، او القاء الطفل مع ماء الغسيل..فلكي نكون ماركسيين، يجب ان ننطلق من مفهوم ماركس العلمي للعالم ولاسيما فلسفته، وان لا نفصل منهجه عن نظريته بل ان نتمسك بمبدأ الوحدة العضوية بين الديالكتيك والمنطق ونظرية المعرفة.وعلى هذا الاساس الراسخ يمكننا ان نعيد تقييم كل شيء على ارض التجربة الاخيرة، ليس تجربة بلد واحد بل تجربة جميع بلدان الشرق والغرب. فالاشتراكية بجميع مشاريعها تمر بازمة شاملة وتجابه هجمة عامة من قبل الراسمالية.

وتعطينا اللينينية كنزا من الخبرة لا يقدر بثمن في محاربة ازمة كهذه ولا سيما بعد فشل ثورة (١٩٠٥-١٩٠٧)، يعني نضال لينين ضد الماخية في الفلسفة المثالية الذاتية والتصفوية والانسحابية السياسية.

واكد زكي خيري في بحثه هذا ان الخطر الذي يهدد الحركة الشيوعية اليوم هو خطر تصفيتها نظريا وايديولوجيا وبالتالي سياسيا وتنظيميا..اما الجمود العقائدي ورفض التجديد، فيضطلع بدور المساير للخطر التصفوي، والحال ان مصير الماركسية اللينينية كايديولوجيا ونظرية وحركة غدا معلقا على تجديدها لا بمعنى نفيها نفيا عدميا(نهليستيا) ولا بمعنى الالتزام بالمنهج دون النظرية والايديولوجيا، بل بمعنى دراسة تجربتها دراسة تمحيصية انتقادية واستخلاص الاستنتاجات الضرورية وتشخيص ما يعد باليا من نظرياتهاواستنتاجات مؤسسيها، ما قد خلفه الواقع المتطور وراءه. وهذه المهمة الصعبة جديرة بان يكرس الشيوعيون حياتهم في سبيل تحقيقها..ان سبعين سنة ليست كبيرة بالنسبة لتاريخ المجتمع الانساني، فالتشكيلة الشيوعية البدائية استمرت عشرات الالوف من السنين، وتشكيلة الرق عدة آلاف والاقطاعية الف ولا تزال بقاياها منتشرة في جميع القارات والرأسمالية بدأت منذ خمسمائة عام و لم تتكامل بعد في معظم البلدان، بيد ان عجلة التطور تدور اليوم من ناحية معينة: من ناحية القوى المنتجة بسرعة خارقة بفضل الثورة العلمية التكنولوجية وهي تحقق الاساس المادي (وفرة الانتاج) لا للاشتراكية وحسب بل للشيوعية ايضا، لكل حسب حاجته! ولكن العملية التاريخية في المجتمع الانساني تتطلب توفر العامل الذاتي ايضا فالرأسمالية لا تخرج من التاريخ تلقائيا دون توفر القوى الثورية الواعية المنظمة القادرةوالعازمة على اخراجها.

واكد زكي خيري دائما بان اداة التجديد هي: الصراع الايديولوجي، صراع الافكار،لان الماركسية اللينينية نظرية ثورية، و لم تكن لتتطور لولا النضال الفكري المثابر الذي شنته ضد جميع الايديولوجيات السابقة والتيارات

المعادية للاشتراكية العلمية. والصراع الفكري لاينفي الانفتاح على الافكار لدى الاطراف الاخرى انفتاحا انتقاديا وتقبل ما هو ايجابي وقيم فيها.

ولذلك ما ان قرأ زكي خيري ما نشرته (الثقافة الجديدة) في عددها المزدوج (٢٥١-٢٥٢) الصادر في نهاية العام ١٩٩٢ مقال بقلم الاستاذ عطية مسوح تحت عنوان:-"نظرية ماركسية لنينية ام منهج مادي جدلي تاريخي الذي جنح الى التفريق بين النظرية الماركسية ونهجها وادان النظرية واعتبرها مصدر جمود الحركة الشيوعية وبالتالي العامل الاساس في الكارثة التي منيت بها، حتى قرر الرد عليه واستنفر قواه الفكرية لما حواه المقال المذكور من قضايا فكرية مثيرة للجدل..

وفي القرية الاقرب الى القطب الشمالي من ستوكهولم التي نقلنا اليها قبل ان نحصل على حق اللجوء(سكوتشير) وفي المصح وسط غابة جميلة وجد زكي خيري نوع من الاستقرار والهدوء الذي اطلق العنان لافكاره فاعاد قراءة المقال المذكور واضطرم شعوره بالمسؤولية اتجاه شعبنا والانسانية لما تشكله الماركسية اللنينية من قوة فكرية ومادية لانقاذهما من الكارثة المحدقة فقرر اقتحام كل الصعوبات للذود عنها والدعوة لتطويرها انطلاقا من منهجيتها ومنجزاتها النظرية والعملية واستنادا الى الواقع المتطور ابدا. وبدأ الكتابة و لم يكن في معينه سوى مصدر واحد هو القاموس الفلسفي وذاكرته التي ماانفك يغذيها بالدراسة والتقصي حتى اخر لحظة من حياته.

اتم زكي خيري مناقشة البحث المذكور بثلاث حلقات ارسلها لمجلة "الثقافة الجديدة" وبعد ستة اشهر نشرت الثقافة الحلقة الاولى كمساهمة نظرية لاغناء وتطوير النقاش الدائر عشية المؤتمر الوطني الخامس للحزب الشيوعي العراقي.. ولأن المؤتمر كان على الابواب وقد يتأخر نشر المناقشة بكاملها في مجلة "الثقافة الجديدة" وابتغاء الفائدة منها بادرت "خبر مشكورة، (وهي نشرة اخبارية تصدر عن منظمة الحزب الشيوعي العراقي في

السويد/لجنة الشمال) باصدارها حتى تكون في متناول الشيوعيين واصدقائهم قبل انعقاد المؤتمر وبنسخ محدودة لضعف امكانيات النشرة. فتوقفت هيئة تحرير الثقافة الجديدة عن نشر الاجزاء الاخرى من البحث و لم تنشر الجزء الثاني إلا بعد سنة وجاء مشوها مما آلم زكي خيري كثيرا. اما الجزء الثالث من البحث فلم ينشر الا بعد رحيل زكي خيري وفي الملف المخصص له. وكانت مجلة "الطليعة" (مجلة الحزب الشيوعي السوري) قد نشرت مشكورة الجزء الثاني من البحث.

ولاهمية البحث واعتباره اسهامة في تطوير الفكر الماركسي المعاصر وفي بلورة المواقف المبدئية من مشاكل العصر وبمبادرة من الكاتب الكبير هادي العلوي تقرر اعادة طبعه مع موضوعات متنوعة في القضايا الفكرية التي سبق ان تناولها زكي خيري في فترات اخرى.

في السنتين الاخيرتين من حياة زكي خيري التي قضاها في السويد وهو في امس الحاجة للروابط الحميمية مع رفاقه ومع جميع الوطنين المخلصين للعمل من اجل انقاذ الشعب العراقي من محنته، في ذلك الوقت توطدت العلاقات الرفاقية والصداقة الحميمة بين زكي خيري والاستاذ هادي العلوي، المناضل والباحث الشجاع والرفيق العزيز كما كان يستهل زكي خيري رسائله الى الاستاذ هادي العلوي. ودارت بينهما مناقشات ودية فكرية وسياسية نشر الاستاذ بعض منها في الصحافة بعد موافقة زكي خيري على ذلك. وضمنت هذا الكتاب بعض منها ولاسيما في القضايا الفكرية التي تشغل فكر الكثير من المناضلين في يومنا هذا.

سعاد خيري

١٩٩٦ /٣/١

وحدة المنهج والنظرية

تقييم هادي العلوي

وسط هذا الركام الهائل الذي كدسته الاخفاقات والتآمرات فران على قلوب الناس واثقل صدورهم، تنبري قلة من اهل الوعي والنبل لتتكلم بلسان الصدق الذي يسعى الفكر الامبريالي لقطعه من اجل ان ينفرد بالارض وابنائها.

وفي ساحة شديدة الالتباس كالساحة العراقية، حيث يتساقط ابناء الجيل الجديد من شباب المرحلة الغورباتشوفية كما يتساقط الهباء في السنة النار، يتكلم شيخ الشيوعيين العراقيين بلغة كان يفترض ان يتكلم بها حاملو راية من الورثة حتى يتركوا لابائهم فسحة يستريحون فيها من وعثاء النضال وعناء الشيخوخة...

في دراسة لاحدث مشكلات الماركسية-اللينينية رد بها على مقالة للكاتب السوري عطية مسوح في شهرية "الثقافة الجديدة"العراقية، تناول زكي خيري (٨٣ سنة) قضايا متنوعة ذات اهمية راهنة، موظفا تجربته العريضة في الحركة الشيوعية واطلاعه الواسع على مصادر الماركسية الاولى، في مسعى لاضاءة الجوانب الملتبسة من معضلات المرحلة الجارية بدقة منهجية ملموسة مع قدرة على الفرز الجدلي ما بين تلوينات الحقائق والوقائع، تعززها صلابة في المبدأ ونزاهة في الفكر واخلاص للاهداف الجليلة التي ارتهن بها

تاريخ القائد العراقي، احد مؤسسي الحركة الشيوعية في العراق والاكثر توغلا في واقع الحياة والمجتمع من بين جميع رفاقه الاحياء.

في هذه الدراسة – المناقشة اكد زكي خيري على التراهن ما بين عدد من الثنائيات المطروحة للتعارض، وهي عنده مناط اتحاد جدلي متين:

الاشتراكية/الديموقراطية

التحرر الوطني/التحرر الاجتماعي

النضال ضد الامبريالية / الطغيان المحلي

القطرية / القومية

القومية /الاممية

وفي مكاشفة ثورية تتموضع فيها جملة الحقائق التي اندرجت حينا من الدهر في عداد المحرمات..يخترق زكي خيري جدار المحرمات وينتهك ما يبدو مقدس في نظر الكثيرين، انما بالامتثال الشديد /في انتمائه وانضباطه/ لمقدسات شاهدة يسعى الوعي الملتبس للاطاحة بها من وراء التمسك بمقدسات كاذبة. ويعيد زكي خيري بذلك الاعتبار لنظرية الماركسية-اللينينية كمنطلق نضال متدامج مع الفكر العلمي بمرتكزاته الجدلية، من غير ان يركب موجة النقد العشوائي الذي اطلقته البيريسترويكة كقنبلة دخان تخفي تآمرها الخبيث على الاشتراكية ومثلها العليا. ان تقييمات زكي خيري وطريقة تناوله للقضايا الكبرى في الماركسية تضعه في عداد الناقدين الطليعين للفكر الماركسي، انما النقد النقد الصادر عن الذات الماركسية اياها، وهو بالتالي نقد للنظرية في الامتثال لا النظرية في الجوهر. ويصبح المقدس في هذه المدرسة الحية ليس الاشخاص ولا الاحزاب ولا الدول، بل المضمون الشاهد للنظرية، كما ترعرعت ومورست على يد روادها العظام، من كارل ماركس الى لينين.

زكي خيري واثق من مستقبل الاشتراكية، ثقة الكتب المقدسة بوراثة الارض. وهو يعتبر النظام الامبريالي القائم، والمهيمن على العالم الارضي لحظة عابرة في مسيرة تاريخ لا متناهية. او كما يسميها المثل الشعبي العراقي "عرس واوية" ومن منظور عدائه الثابت والمتجدد للرأسمالية ونغليها الكبيرين: الاستعمار والصهيونية، فهو يرسم جنبا الى جنب مع القلة الصامدة، الخط الصحيح لحركة شيوعية تتخلص من اوضار البريسترويكا وتستعيد موقعها في ساحة النضال الوطني ضد نفس العدو: الامبريالية العالمية بقيادة الولايات المتحدة، مع التمسك باساسيات الشيوعيين في الدمج الدياليكتيكي بين النضال الوطني والطبقي.

ساترك زكي خيري يتكلم مع القراء من خلال اصحاحات يكرس بها الوعي السياسي والاجتماعي المعلمن بازاء الوعي المشوه والمشبوه. ولا اريد ان اتكلم بلسانه فربما اسأت العبارة عما يريد. لكني، واختصارا للزمن، توسطت بينه وبين القراء في اختيار ما اعتقد انه راغب في ايصاله اليهم.

*ان النظرية تتوالد، ولكنها لا تتوالد تلقائيا او عفويا او على يد النهج وحده. بل تتوالد على يد الذات الواعية (الفرد، الحزب، الطبقة، المجتمع).

منكرا في ذلك ان يكون للدولة علاقة بالفكر، تأكيدا لاطروحة مهدي العامل بنفي الفكر عن الدولة كمعطى غير عقلي في الاساس، وانما اعتباري ووسائلي.

*ميزة الاشتراكية هي ادراك العامل انه يعمل لنفسه لا للدولة.

وهذه الاصحاحة اقتبسها من لينين، بوصفه، اي لينين، عدو للدولة يتقبلها من باب انها شر لا بد منه ولكن بشرطه هو لا بشرط الحكام.

*لا يحل المنهج الماركسي محل مناهج العلوم الاخرى، ولكنه اساسها الفلسفي المشترك.

يعني، الماركسية هي منهج المناهج، فيما يخص الفكر كفكر، كسيرورة عقلية.

*لو انقصت ساعات العمل في الولايات المتحدة ساعة واحدة في اليوم، لامكن تشغيل العشرة ملايين عاطل امريكي..لكن الرأسماليين لا يريدون تعويد العمال على يوم عمل قصير لانه يفسح لهم في المجال لتثقيف انفسهم والتفكير في حقوق اوسع..كما ان الراسماليين يريدون استخدام جيش العمل الاحتياطي لفرض شروطهم على العاملين.

*ان الذئب الامبريالي الصهيوني لم يكن بريئا من دم ابن يعقوب الاشتراكي، ومع ذلك، فما من احد يستطيع ان يسيء الى الاشتراكية بقدر ما يستطيعه الاشتراكيون انفسهم، كما قال لينين.

شخص لينين الحلقة الرئيسة في النضال ضد الازمة وهي الدفاع عن اهم مباديء الماركسية وفلسفتها المادية الدياليكتيكية. و لم يكن كتابه "المادية والنقد التجريبي محض دفاع عن الفلسفة الماركسية، بل تطويرا واستكمالا لها. في الازمة الراهنة: وهي اعمق بما لا يقاس جراء السقوط من ارتفاع اعلى بما لا يقاس، يجب ان يكون المنطلق في تجديد الماركسية اللينينية على اساسها الفلسفي، والا كان التجديد مسخا، او القاء الطفل مع ماء الغسيل*

*روى احد المقربين لستالين انه صرح له في لحظة من وخز الضمير، وقد بلغ به الكبر عتيا: "لقد ترك لنا لينين دولة بروليتارية حقا، فما كان منا الا ان شلحنا سراويلنا لنشخ عليها..

زكي خيري يقيّم ستالين كرجل عظيم طيب النوايا وانه ذهب ضحية الضرورة الباعثة على تكوين دولة صناعية عظمى تواجه جبروت الرأسمالية المسلحة.

*لا ازال اذكر حديثا جرى بين ايج جي ويلز وستالين في اوائل الثلاثينات. وكان ويلز اشتراكيا من الفابيين وقد قال لستالين: "عندنا في

بريطانية وامريكا يمكن ادخال الاشتراكية ليس عن طريق الثورة، كما جرى عندكم، بل عن طريق الاصلاح" و لم يكن في هذا الكلام مفاجأة لاحد، بل كانت الفاجأة في رد ستالين: "نعم ممكن، ولكن خلال مائة سنة.. لقد عرف ستالين بالتشدد اليساري، ومع ذلك، كان رده ايجابيا...وها قد مرت ستون عاما ونيف، و لم تصبح بريطانيا اشتراكية، بل ابتعدت عنها اكثر خلال حكم تاتجر وميجر..ناهيك عن امريكا.

*ليس من المحتوم على البلدان العربية ان تجتاز نفس طريق التطور الذي اجتازته اوربا الغربية خلال الخمسمائة سنة الاخيرة. الماركسية اللينينية تنفي مثل هذه الحتمية، وسيرورة التاريخ العالمي لا تدل على ان جميع البلدان قد مرت بجميع التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية التناحرية على التوالي، من الرق الى الاقطاع الى الراسمالية وصولا الى الاشتراكية، بل ان العديد من البلدان قد تجاوز هذه التشكيلة او تلك، دون استثناء الرأسمالية..والارتداد الوقتي عن الاشتراكية لا ينفي هذه الحقيقة. فالبلدان التي كانت متطورة رأسماليا من قبل هنغاريا وجيكوسلوفاكيا قد اخذت تتراجع عن الاشتراكية باسرع وابعد من غيرها التي كانت تعاني من التخلف في ميدان التطور الرأسمالي.

ويقتبس زكي خيري من ماركس: "اذا كانت روسيا ستستمر في السير على الطريق الذي انتهجته منذ عام ١٨٦١ (يشير الى الغاء القنانة وانتهاج طريق التطور الرأسمالي) فسوف تفوت عليها افضل فرصة قدمها التاريخ في وقت ما لشعب من الشعوب، وستعاني من كافة مصائب النظام الرأسمالي المشؤومة"

وفي نص مكمل:"ان المشاعة الريفية التي لا تزال قائمة على الصعيد(النطاق) الوطني في روسيا تستطيع، بفضل اجتماع استثنائي من

الظروف، ان تتحرر تدريجيا من سماتها البدائية، وان تتطور مباشرة بوصفها عنصر انتاج اجتماعي على الصعيد الوطني

ويعقب زكي خيري:"ان الظروف التاريخية جرت خلافا لما يتمناه ماركس: فالدولة الروسية القيصرية، انحازت ضد المشاعة الفلاحية، واذاقت روسيا كأس الرأسمالية الامبرياليةحتى الثمالة"

وبالتكامل مع هذا التحديد يقول:

*نحن نعيش في مرحلة رأسمالية الدولة الاحتكارية الامبريالية، وفي عالم تتعايش فيه نماذج من شتى التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية. ولو ان البلدان التي انتصرت فيها الثورة الاشتراكية لم تتسرع في الغاء الانماط ما قبل الاشتراكية كليا، لما حلت بها الكارثة التي نشهدها.

*ان التطور الرأسمالي الحر هو طريق الالام والعذاب للجماهير..طريق التبعية للامبريالية وادامة التخلف الاقتصادي الاجتماعي. والرأسمال الدولي لا يُدخل من التكنولوجية الحديثة الى البلدان المتخلفة الا ما هو مربوط بخيط يمكنه سحبه متى يشاء كما كان (مثال العراق). ولذلك لا بد من طرح مهمات تحررية تتجاوز العلاقات الرأسمالية من اجل انجاز مهام التحرر الوطني الديموقراطي والتقدم الاجتماعي.

يعني بفك الارتباط بالاقتصاد الامبريالي العالمي.

*ان الاستاذ مسوح يرفض نصوصا وضعت للبلدان المتخلفة اصلا، ومنها امكانية تجنب المرحلة الراسمالية من التطور كليا او جزئيا، ويفرض علينا خطا للتطور فرضته على اوربا ظروفها التاريخية، خلافا للتاريخ العالمي وللنظرية الماركسية اللينينية

*لم تكن الانهيارات في البلدان الاشتراكية الا نتيجة لتغييب الدور الطليعي للطبقة العاملة في قيادة المجتمع والانابة عنها واستلابها وسائل الانتاج" يعني تحويل دكتاتورية البروليتاريا الى دكتاتورية الدولة.

ونقل زكي خيري قول عبد الكريم قاسم في الرد على مفهوم ومطلب الوحدة الاندماجية للقوميين:

"نحن جزء من كل ولسنا جزء من جزء"

"يعني ان العراق جزء من الامة العربية وليس جزء من بلد عربي آخر.. قالها عبد الكريم قاسم حين كانت الفئات القومية تعمل على ادماج العراق بالجمهورية العربية المتحدة بزعامة شخص معيين، ولحساب بلد معين وتصور عبد الكريم قاسم جيو سياسي دقيق ويضع للوحدة اساس عملي يتجاوز نموذج التسلط البسماركي/ القومي.

*ان الطبقات الحاكمة العربية لم تجد في الوحدة العربية مصلحة لها، كما ان الصهيونية والامبريالية تخاف من قيام دولة عربية متحدة اندماجيا او فدراليا او كونفدراليا خوف الشيطان من النار.

*ان ام كلثوم ومحمد عبد الوهاب والجواهري و..وامثالهم عملوا من اجل تطوير الوحدة العربية اكثر مما فعله الساسة الوحدويون جميعا.

قال لينين: ان الشيوعي الذي لا يثقف نفسه بافضل ما انتجه العقل البشري ويكتفي بدراسة الكتب الماركسية انما هو شيوعي بائس..

* * *

تركت زكي خيري يخاطب القراء مباشرة و لم اعترضه الا في نقاط تتطلب التوضيح.

وما يكتبه هذا القائد الماركسي الجليل في هذه المحنة الضاربة يتمتع باهمية استثنائية بالتظافر مع غيره من الرموز النضالية التي اخذت بالنهوض، بعد ان صحأ المعسكر الثوري من ضربة البيريسترويكا..وانه لموقع هام في ساحتنا العراقية الراكدة ان ينبعث من جيل الشيخوخة المزاحة الى الوراء من

يتكلم بلسان الارض التي لا تشيخ، فلا يترك عذرا لثوري مـن الجيـل اللاحـق ليبقى يكرز بالعطالة الغورباجوفية، وبلغة الشيوعيين احيانا.

معرة النعمان

المصدر "وحدة المنهج والنظرية"

خبـــر اصدار منظمة الحزب الشيوعي العراقي في السويد

هادي العلوي

معرة النعمان ١٩٩٤/٣/٢٧

الفصل الاول

وحدة المنهج والنظرية

نشرت الثقافة الجديدة في عددها المزدوج (٢٥١-٢٥٢) الصادر في نهاية العام ١٩٩٢ مقالة بقلم الاستاذ عطية مسوح تحت عنوان:

"نظرية ماركسية لينينية أم منهج مادي جدلي تاريخي؟"

قراءتها مشوقة لانها مثيرة للجدل ولاسيما ان المؤلف ليس من خارج الصف الماركسي ‘بل من داخله وفوق ذلك منحاز الى جانب المنهج المادي الجدلي التاريخي للماركسية‘ولكنه ضد جانبها النظري او ضد اعتبارها نظرية.وقد اخذ على عاتقه مهمة مشرفة جدا هي (محاولة وضع بعض الافكار الاولية لاعادة الاعتبار الى منهج ماركس الجدلي التاريخي على حساب النصوص الماركسية التي ساهمت في تجميد عقول الماركسيين عشرات السنين)

ويلي ذلك مباشرة العنوان الاتي:

"الخلط بين المنهج والنظرية كاساس للجمود العقائدي"

هذا هو المبحث الاول والرئيس في المقال، وفيه يعرف النظرية ويعارض بين النظرية والمنهج وينفي كون الماركسية نظرية،وكيف ادى اعتبار الشيوعيين الماركسية نظرية الى الجمود العقائدي. وهذا هو اساس البلاء الذي

يرجع الاستاذ مسوح اليه تجمد عقول الماركسيين وبالتالي الزلزال الـذي هـدم الاشتراكية الفعلية ويخلص الى القول:

"ان الاختلاف بين ان نقول –منهج ماركس المادي الجـدلي –وان نقـول –النظرية الماركسية اللنينية –ليس مجرد اختلاف في التسمية وليس فقط قضيـة شكلية وانما هو نقطة افتراق بين الجمود العقـائدي والتحـرر الفكـري الخـلاق وبالتالي فان التعـامل مـع الماركسـية كمنهـج معـرفي هـو نقطـة الانطـلاق في التجديد الفكري المطلوب"

وهـذه المعارضـة بـين النظريـة والمنهـج والانحيـاز للمنهـج علـى حسـاب النظرية لا نسمعها لأول مرة فقـد رددهـا في السـنوات القليلـة الماضيـة بعـض ممثلي الاحـزاب الشـيوعية في المشـرق العربـي وسـطرت في الوثـائق الداخليـة لبعض هذه الاحزاب. وعليه فان بحث هذه الموضوعة ليس مسألة اكاديمية او (نظرية) بالمعنى السلبي للكلمة الذي اسـبغه عليهـا الاسـتاذ مسـوح، بـل غـدا مسألة منهجية ايضا.

يتهم الاستاذ مسوح (الماركسيين)بانهم هم الذين دمجوا (المنهج بالنظرية) التي ولدها وبانهم بهذا الدمج صادروا المنهج..فهل كـان الماركسـيون ابتـداء من ماركس هم الذين دمجوا المنهج بالنظرية؟

يعلمنا تاريخ الفلسفة ان هيجـل ابـو الديـالكتيك الحديـث هـو اول مـن ارتكب هذه الخطيئة المميتة التي لا تقل عن خطيئة ابينـا آدم الـتي حرمتنـا مـن الجنان طوال خمسة آلاف وسبعمائة سنة حسب التاريخ العبري.

حلل هيجل قوانين الديالكتيك ومقولاته الرئيسة وقد برهن على صـواب النظرية Theory القائلة بوحدة الديالكتيك:–المنهج والمنطق ونظريـة المعرفـة. وطور لأول مرة في تاريخ الفكر نظاما للمنطق الديـالكتيكي وأسـهم اسـهاما قيما استثنائيا في نظرية المعرفة.(راجع مادة:Hegel في قاموس الفلسـفة باللغـة الانكليزية:

Dictionary of philosophy Moscow progress publishers 1984).

ان هذا القاموس الفلسفي هو المرجع الوحيد في متناول يدي الآن وفي الاستشهادات الآتية منه ساذكر عنوان المادة بالانكليزية ليتيسر مراجعة القارئ لها.

وقد اخذ ماركس بهذا الدمج بين النظرية والمنهج مع فارق اساسي بينه وبين هيجل وهو ان ماركس اعتبر وحدة النظرية والمنهج والمنطق انعكاسا للعالم الموضوعي على فكر الانسان بالضد من هيجل المثالي. وتميزت الماركسية بفارق اساسي آخر عن الهيجلية وهو انها ادخلت المادية الديالكتيكية -المنهج والنظرية والمنطق- الى دراسة المجتمع البشري فانتجت: المادية التاريخية.

وتميزت الماركسية عن جميع الفلسفات القديمة بميزة ثورية عظيمة وهي:-العمل على تغيير العالم وليس الأكتفاء بفهمه وشرحه...فقد توصل ماركس وانجلس من خلال دراسة التاريخ البشري بمنهج مادي ديالكتيكي الى نظرية الصراع الطبقي التي تقضي بان الصراع بين الطبقات قد غدا بعد زوال المجتمع الشيوعي البدائي القوة المحركة للتاريخ،وانه سوف يؤدي الى زوال انقسام الناس الى طبقات،الى المجتمع الشيوعي...وان وسيلة هذا التغيير للعالم هو نضال الطبقة العاملة ضد الرأسمالية..وهذا مثال على اندماج المنهج بالنظرية.كما ان كل نظرية علمية تحمل معها منهجها واداة تحقيقها سواء كانت نظرية لتغيير الطبيعة او المجتمع البشري. والنظرية دون منهجها زهرة عقيمة.أما المنهج بلا نظرية فيبقى اداة سائبة بلا هدف. وقد قال لينين:-ان الديالكتيك استخدمه السفسطائيون في اليونان القديمة كمنهج ومنطق للمغالطات لاثبات الشئ ونقيضه في نفس الوقت. فالمنهج بلا نظرية ليس اقل شرا من نظرية بلا منهج.

فلنبحث عن خطايانا لافي دمج المنهج بالنظرية بل، بالفصل بينهمـا، ولا يختلف ذلك عن فصل النظرية عـن الممارسـة الامـر الـذي يـؤدي الى الجمـود العقـائدي او الى التجريبيـة وكلاهمـا شـر. ان النقـد يجـب ان يوجـه الى الماركسيين انفسهم الذين كفوا عن تطويـر النظريـة خلافـا للحكمـة المعروفـة وهي: ان الامانة للماركسية هـي تطويـر النظريـة والمنهـج والمنطـق باسـتمرار وبدأب. في حين لا يدعونا الاستاذ مسوح الى تطويرها بـل الى اهمالها او في احسن الاحوال اخضاعها للمنهج، الامر الذي يلغي دورهـا كمرشـد للعمـل والممارسة وللمنهج بالذات. ويتضح من استخفافه بالنظرية من تعاريفـه لهـا- التعاريف التي ينسبها الى(المعجمات العربية) دون ان يعين ايـا منهـا فيقـول: "ان كل نظرية سواء كان موضوعها الطبيعة ام المجتمع تتصف بما يلي:

"انها تبدأ من نقطة معينـة، هـي الفرضيـة، وتنتهـي الى نقطـة معينـة هـي البرهان، أي انها ذات بداية ونهاية"

وهكذا تجد البرهان نهاية النظرية وليس بدايتها! لقد اختلـط الامـر علـى صاحبنا والتبست في ذهنه الفرضية بالنظرية وغدت صورتها آية في التشويش. فالفرضية Hypothesis كمـا يعرفهـا القـاموس الفلسـفي بانهـا لا اكـثر مـن احتمال مرجح قد يبرهن العلم على صدقها فتغدو نظرية Theory أو يفندهـا العلم فتنبذ. فالفرضية هي التي تنتهي باقامة البرهان العلمي على صحتها لأنهـا لا تعـود مجـرد فرضيـة بـل تغـدو نظريـة علميـة بعـد ان جـرى التحقـق مـن صحتها،ففرضية (الأثير) ثبت بطلانها فانتهت وغدت نسيا منسيا.أما فرضيـة (الذرة) التي افترضها ديموقريطس في بلاد اليونان في قديـم الزمـان فقـد اثبـت العلم في يومنا هذا صحتها فلم تعد محض احتمال مرجح بل انتهت كفرضيـة لأنها اصبحت نظرية ثابتة علميا مع تطويرها. فلم تعـد ذلـك الجـزء الـذي لا يتجزأ من المادة بل، انه الجزء الذي يتجزأ ويتجزأاجـزاء واجـزاء اجزائهـا بحثـا عن الجزء الذي لا يتجزأوقد لايصلون الى نهاية فنحن نعيش في عالم لانهائي!

ويواصل الاستاذ مسوح نقده للنظرية قائلا:

"والنظرية اية نظرية كانت هي غير قادرة على التطور ،بذاتها أي بدوافع داخلية وآلية داخلية بل هي مؤهلة فقط لان تسقط حين تبطلها (تنفيها) نظرية اكثر حداثة (صحة) منها مهما يكن الفرق بين النظريتين ضئيلا.فعند الوصول الى نظرية اكثر صحة يصبح من الخطأ الركون الى النظرية السابقة (الاقل صحة)

لم يعطي الاستاذ اية وظيفة للنظرية منذ ولادتها من رحم المنهج حتى سقوطها وقد حرمها حتى من الانجاب لتساهم في بقاء نوعها فغدت بغلة او زهرة عقيمة ما ان تولد حتى تموت لتحل محلها زهرة عقيمة اخرى يلدها المنهج. ويستخلص من كل ذلك:

"فان الماركسية لايمكن ان تكون نظرية. وحين اعتبرت نظرية كفت عن التطور لأن النظرية لا تتطور بذاتها بل تنفى من قبل نظرية احدث منها"

وهكذا يتميز الاستاذ مسوح باحكامه القاطعة المطلقة فلا يترك لنفسه اية ثغرة للتراجع. ويقطع كل صلة بين النظرية السابقة واللاحقة، وبين هذه وماضيها او مستقبلها فيحكم على المعرفة بالتقطع في حين انها سلسلة متصلة الحلقات.ومن المبادئ المنهجية الاساسية السائدة في تطور العلم مبدأالتوافق Corespondence principle ويعبر هذا المبدأ تعبيرا فلسفيا عن ديالكتيك المعرفة، الحركة من الحقيقة النسبية الى الحقيقة المطلقة،الحقيقة الاكمل فالاكمل. وقد صاغ هذا المبدأ العالم الدانماركي بوهر Bohr الحائز على جائزة نوبل والمشارك في تأسيس علم ميكانيكة الكم Quantum Mechanicsوقد صاغ مبدأالتوافق سنة ١٩١٣عندما كانت مبادئ الفيزياء الكلاسيكية تنهار فاكدت نظريته على:

"ان تعاقب نظريات العلوم الطبيعية الواحدة بعد الاخرى لايكشف فقط الفارق بينها بل التواصل ايضا وهو ما يمكن التعبير عنه بدقة رياضية...وعندما تحل النظرية الجديدة محل النظرية السابقة فإنها لاتنفيها فقط بل تحتفظ بها

ايضا بصورة معينة. وهذا يتيح الانتقال المعاكس من النظرية اللاحقة الى السابقة وتوافقهما والتقائهما في مجال اقصى معين يتضاءل فيه الفارق بينهما ويمكن تتبع مفعول التوافق في تاريخ الرياضيات والفيزياء وعلوم اخرى ان التسلسل الطبيعي للنظريات القديمة والجديدة ينبع من الوحدة الباطنية لمستويات المادة المختلفة من حيث الكيف"

وهكذا يبرهن لنا العلم الطبيعي ان النظرية ليست مؤهلة فقط لأن تسقط حين تبطلها (تنفيها) نظرية اكثر حداثة (صحة) منها مهما يكن الفرق بين النظريتين ضئيلا، كما يشير الاستاذ مسوح، بل انها تبقى وتعيش في ثنايا النظرية اللاحقة في حالة التبعية Sublation كعنصر من عناصرها او كذرات في تركيبها. والادهى من ذلك انها تبقى حية مستقلة حتى منافسة لوليدتها وان يكن في مجالات قصوى حيث يتضاءل الفارق بينهما كما يشير بوهر.

ان العالم بوهر والاستاذ مسوح كلاهما يستعين بقانون نفي النفي في تتابع النظريات ولا فرق بينهما سوى ان بوهر يعتمد نفي النفي في الديالكتيك في حين يعتمد الاستاذ مسوح على النفي الميتافيزيائي. فالاول يبرهن على تواصل سلسلة المعرفة الذي لا انفصام له في حين يقطعا الاخير وكأنها بلا تاريخ. ان التواصل Continuityصفة ملازمة للمعرفة البشرية، تربط بين القديم والجديد في صيرورة التطور، وهو احد السمات الاساسية لقانون نفي النفي. بالضد من الميتافيزياء يتجه الديالكتيك المادي الى بحث عمليات التطور التقدمي في الطبيعة والمجتمع والفكر. ان تكوين صور حركة المادة نفسه يرينا ان كل صورة اعلى للحركة تتلو صورا ادنى ولا تمحو وجودها بل تحتويها في باطنها وتخضعها كتابع لها رافعة اياها الى مستوى كيفي جديد. ان الفهم الديالكتيكي للنفي لا يستلزم التنكر للقديم وتصفيته بل الاحتفاظ والتطوير الابعد لما هو تقدمي ومعقول فيه ومن دون ذلك تستحيل الحركة الى الامام سواء في الوجود او المعرفة. وللفهم الصحيح لسيرورات التواصل اهمية خاصة في تحليل القوانين التي تسود التطور

الاجتماعي وتقدم العلوم والفن وفي مكافحة الموقف اللاانتقادي من منجزات الماضي او النفي العدمي للتراث الثقافي على السواء.

ان النظرية تتوالد ولكنها لا تتوالد تلقائيا أو عفويا أو على يد المنهج وحده، بل تتوالد على يد الذات الواعية (الفرد، الحزب، الطبقة، المجتمع) وبواسطة المنهج وعلى اساس الممارسة. وكل نظرية تحمل جنين النظرية اللاحقة.

ويعرف الاستاذ مسوح النظرية بانها (تجريد كامل) انه تعريف وحيد الجانب، فالنظرية نظام من المعارف المعممة يعطي صورة داخلية لجوهريات الواقع واتساقه أو قياساته. ولمصطلح النظرية دلالات تميزه عن الممارسة وعن الفرضية. وتختلف النظرية عن الممارسة في انها تعكس الواقع روحيا أو ذهنيا وتعيد انتاجه في الفكر وفي نفس الوقت ترتبط النظرية ارتباطا لا انفصام له بالواقع الذي يطرح مشاكل ملحة امام المعرفة ويطالبها بحلها. ولهذا السبب فان الممارسة ونتائجها الملخصة هي جزء لا يتجزأ من كل نظرية. وفي منتصف القرن التاسع عشر أي بقيام الماركسية تحولت الاراء الاجتماعية الى نظرية علمية لقوانين التطور الاجتماعي. وتلعب النظريات دورا كبيرا في المعرفة العلمية وتحويل المجتمع بطرق ثورية. وهكذا بينما تبدأ النظرية تعميما للنشاط المعرفي ونتاج الممارسة فهي مرشدة لتحويل الطبيعة والحياة الاجتماعية، انها ثمرة الانتاج الروحي والاجتماعي التي تصوغ اهداف الممارسة وتعيين وسائل تحقيقها. وتوجد النظرية بصورة مفاهيم مطورة لمواضيع النشاط الانساني.

ان النظرية نتيجة لعملية التجريد Abstractionعلى يد الذات الواعية ولكنها نتيجة عينية Concrete وليس محض تجريد..تتميز عن العيني الذي هو موضوع الدراسة أي نقطة انطلاق البحث (العيني الحسي) في كونها المنتوج النهائي للبحث، ثمرته المفهوم العلمي للموضوع، انها (العيني الذهني). ويصف لينين النظرية في دفاتره الفلسفية فيقول:-

ينطلق الفكر من العيني الى المجرد-شرط ان يكون التجريد صائبا- فلا يبتعد عن الحقيقة بل يقترب منها. فان مجردات كالمادة او كقانون من قوانين الطبيعة او قانون القيمة...الخ وباختصار جميع المجردات العلمية الصائبة، الجدية، غير السخيفة، انما تعكس الطبيعة على نحو اعمق واصدق واتم..وتنطلق من الملاحظة الحية الى الفكر المجرد ومنه الى الممارسة. ذلك هو السبيل الديالكتيكي الى معرفة الواقع الموضوعي

ان الممارسة الاجتماعية هي المحك الاخير للنظرية شرط ان تكون الممارسة دقيقة ومبدعة ومنهجية ومسترشدة بالنظرية فعلا لا بمحض القول، فضلا عن ملاءمة الظروف الموضوعية لان الممارسة هي ايضا صيرورة تتطور فهي محددة في كل مرحلة معينة بقدرات الانتاج، مستواه التكنيكي..والخ. وهذا يعني ان الممارسة هي ايضانسبية كما هي الحقيقة والنظرية. ونسبية النظرية لا تسمح لها بان تكون عقيدة جامدة (دوغما) لاتسمح لها ان تكون المطلق اللامتغير.

ان الماركسية هي التي ادخلت الممارسة كمعيار للحقيقة، في صلب نظرية المعرفة. بيد ان تحقيق النظريات العلمية ي الممارسة لايجعلها حقائق مطلقة فانها تواصل التطور وتغتني وتتوسع في المدى والدقة وتطرح بعض قضاياها لصالح قضايا جديدة. ولذلك فان طرائق المقارنة بين النظريات العلمية والواقع من خلال الممارسة تستكمل باضطراد.

و لم يعطينا الاستاذ مسوح تعريفا للمنهج سوى وظيفته وهي انه:

"يولد نظريات متعددة كالمنهج الرياضي مثلا" وهذا ما يميز به المنهج عن النظرية!..ثم يقول:

"والنظريات أيا كان موضوعها هي نتاج منهج معرفي معين" ولا يقول لنا كيف يعمل هذا المنهج وما إذا كان يعمل تلقائيا كالكمبيوتر مثلا! ويواصل قوله:

"والمنهج جزء من العلم لان العلم هو موضوع البحث والمنهج المعرفي الخاص به والنظريات التي يولدها هذا المنهج".وهكذا جمع الاستاذ مسوح في وحدة كلية بين العلم والمنهج المعرفي والنظريات التي يولدها هذا المنهج جمعها في نظام واحد اسمه العلم، بعد ان فصل بين المنهج والنظرية فصلا باترا وعارض بينهما كضدين لايجتمعان، وإذا ماجمعا او دمجا ببعضهما قسرا كما فعلت الاحزاب الشيوعية ادى ذلك الى "مصادرة المنهج" و"تجميد عقول الماركسيين

وإذا سلمنا جدلا بان النظرية "تجريد كامل"فهل المنهج ياترى اقل تجريدا من النظرية باي حال من الاحوال؟ وهل نظرية ماركس حول القيمة الزائدة الاساس الذي يقوم عليه الاستغلال الطبقي اكثر تجريدا من قوانين المنهج الديالكتيكي كقانون وحدة الاضداد واصطراعها؟

يبدو لي ان المنهج اكثر تجريدا. وقد غدت المناهج في العلوم الخاصة عبارة عن معادلات رياضية غاية في التجريد بحيث تغذى بها الكومبيوترات التي تحل المسائل تلقائيا، و لم يخترع بعد كومبيوتر يبتدع نظريات.

وتعرف المعجم الماركسية المنهج انه سبيل البحث او ادراك النظرية والتعاليم وطريقةبناء او تأسيس نظام المعرفة الفلسفية. انه مجموعة الوسائل والعمليات لفهم الحقيقة نظريا وعلميا. وبالنسبة للفلسفة الماركسية اللينينية تشكل الدياليكتيكية المنهج الفلسفي. ويعود مصدر المنهج الى النشاط العملي للفرد الذي منذ البداية يجب ان ينسجم مع خصائص قوانين الواقع،مع المنطق الموضوعي لذلك الشيء الذي يراد بحثه.

ان المحتوى الاساسي للمنهج العلمي يشكل قبل كل شيء النظرية العلمية التي تختبرها الحياة. وأية نظرية من هذا النوع تقوم بوظيفة المنهج عند بناء نظرية اخرى في نفس المجال وحتى في مجالات الادراك او في وظائف المنهج التي تحدد محتوى واستمرار النشاط التجريبي. ولذلك فان الاختلاف بين

المنهج والنظرية يحمل سمة وظيفية.و في التشكيل النظري نتيجة البحث المسبق يكون المنهج نقطة الانطلاق

ان الديالكتيك كمنهج هو المنطق الحقيقي الذي يحتوي على التفكير المبدع والذي يعكس ديناليكتيك الحقيقة الحقيقة الموضوعية. وقد حررت المادية الديناليكتيكية العالم من الاتجاه الذاتي في توضيح الحقائق، من احادية الجانب. وفي الديناليكتيك كل القضايا تتسم بطابع تاريخي ومتابعة التطور تصبح مبدأ استراتيجيا لتطور العلوم واخيرا فالديناليكتيك يقوم على الكشف عن التناقضات وطرق حلها سواء في الادراك ام في الواقع.

والمنهج المادي الديناليكتيكي مكن من الفهم الصحيح لسمات العلاقة بين النظرية والمنهج ودور الممارسة في الادراك. فإذا كانت النظرية هي نتيجة عملية الادراك، فالمنهج هو طريقة الحصول على هذه المعرفة وبنائها النظري. والنظرية التي خضعت للاختبار في الممارسة الاجتماعية تستطيع بدورها هي ان تقوم بوظيفة المنهج أي كموجه في النشاط البحثي. ان اساس اختلاف المناهج يعود الى تعقد وسائل واساليب النشاط في مختلف مستويات تنظيم الانتاج المادي والروحي. وفي عصرنا يجري بسرعة نمو البحث المنهجي بسبب التغيرات الثورية في الممارسة الاجتماعية وفي العلوم والتكنولوجيا وغيرها من مجالات الحياة. وتكمن في اساس جميع مناهج المعرفة قوانين الواقع الموضوعية. ولهذا يرتبط المنهج ارتباطا لا انفصام له بالنظرية. ان لكل من العلوم الخاصة منهجها الخاص ويتميز المنهج الفلسفي عنها بانه المنهج العام للمعرفة أي المنهج الديناليكتيكي المادي. لان أعم قوانين تطور العالم المادي تكون الاساس الموضوعي للمنهج الديناليكتيكي.

ولا يحل هذا المنهج محل مناهج العلوم الاخرى ولكنه اساسها الفلسفي المشترك. ويعمل كأداة للمعرفة في جميع المجالات. والديناليكتيك في نفس الوقت منهج تحويل العالم.والمنهج الديناليكتيكي يتعارض مع الديناليكتيك المثالي ومع الميتافيزياء.

وكان هيجل اول من شدد على الطابع المعين للمنهج الفلسفي وتمييزه عن مناهج العلوم المعينة وعدم اختزاله الى مستواها او تحديده بحدودها. وقد شدد هيجل أيضا على ان المنهج هو حركة المضمون نفسه،ولهذا السبب لا يمكن بحثه بمعزل عن المضمون. بيد ان مثالية هيجل ادت الى رفع المنهج الى المطلق (كما يفعل الاستاذ مسوح) واختزل قوانين العالم الموضوعي الى قوانين المعرفة.

وتنطلق المنهجية الماركسية Marxist Methodology من حقيقة ان مناهج المعرفة قائمة على اساس القوانين الموضوعية في الطبيعة والمجتمع ولا يمكن للمنهج المعرفي ان يكون علميا مالم يعكس القوانين الموضوعية للواقع نفسه. ولهذا السبب فان مباديء المنهج العلمي ومقولاته ومفاهيمه ليست حاصل جمع قوانين تحكمية يخلقها العقل الانساني بل تعبير عن قوانين الطبيعة والانسان ايضا. وفي نفس الوقت يأخذ المذهب المنهجي الماركسي بالحسبان القوانين المعينة لنشاط الذهن. ومما له اهميته بصورة خاصة، إنه يربط هذه القوانين بالنشاط العملي للذات الاجتماعية بحق العالم الموضوعي.

ويواصل الاستاذ مسوح في بحثه هذا حملته على النظرية فيقول:ـ

"وحين اعتبر -الماركسيون-الماركسية او الماركسية اللينينية نظرية اصبحوا مضطرين الى الاخذ بها بكل ما احتوته منذ اول سطر خطه ماركس الى آخر سطر خطه لينين، دابجين المنهج بالنظريات التي ولدها، بالافكار التي احتوتها كتابات -المؤسسين- وبطبيعة الحال كان هذا الدمج على حساب المنهج، لان الاخذ بكل ما قاله ماركس وانجلس ولينين في ظروف معينة واعطاءه صفة الاطلاق النظري خارج حدود الزمان والمكان هو مصادرة للنهج الذي يمكن ان يعطي في ظروف مختلفة نظريات وافكار مختلفة تنفي الكثير مما توصل اليه المؤسسون"

ولكن لماذا إذا اعتبرنا مذهبنا نظرية نصبح مضطرين الى الاخذ بها بكل ما احتوته من اول سطر الى آخر سطر والى اعطاء صفة "الاطلاق النظري خارج

حدود الزمان والمكان"؟ وما الذي يضطرنا الى ذلك؟وفق أي مبدأ أو قانون عرفاني أو طبيعي نكون مضطرين الى اعتبار نظريتنا قرآنا لمحض اعتبارنا اياها نظرية؟!

لم يعطنا الاستاذ مسوح أي دليل او حتى مثالا إيضاحيا واحدا وكأن المسألة مسلمة أو بديهية لا تحتاج الى أي دليل ولا جدال فيها. لو انه يتهم الماركسيين بانهم حولوا الماركسية الى عقيدة جامدة لكان هذا اتهام وارد وواقعي في كثير من الاحيان ويفسر الى حد بعيد الازمة الراهنة في الحركة الشيوعية ولكن الاستاذ مسوح اراد ان يأتي بشيْ جديد و مفاجيء مفاجأة درامية تهزنا هزا لأيقاظنا من سباتنا الطويل على فراش النظرية الوثير والمريح.ففاجأنا بقوله ان الماركسية ليست نظرية وانما "منهج معرفي على غرار الكثير من المناهج المعرفية وهي باعتقادي اكثرها صحة لانه منهج مادي جدلي تاريخي"! وهو لا يشجعنا على الاستشهاد بكتب مؤسسي الماركسية كما لو كانت كالمعاجم، ومع ذلك فانا مضطر للاستشهاد بها بصدد النظرية الماركسية. يقول انجلس:

"ان نظريتنا ليست عقيدة جامدة بل توضيح لعملية التطور التي تنطوي على جملة من الاطوار المتلاحقة"

وفي مجال آخر يقول:-

"كل المفهوم عن العالم عند ماركس ليس عقيدة جامدة بل طريقة. وهو لايعطي عقائد جاهزة بل نقاط انطلاق لأجل مواصلة البحث وطريقة لأجل هذا البحث"

فهذا احد مؤسسي الماركسية لا يعارض بين "المفهوم عن العالم" وبين المنهج الطريقة بل يدمج المنهج بالنظرية على نقيض ما يفعله الاستاذ مسوح.

ان السبب الرئيس للجمود هو الجهل والعجز عن تطوير الظرية وحتى عن فهم النظرية كمرشد للعمل وليس كنصوص مقدسة قابلة للتطبيق في كل زمان ومكان. ويورد الاستاذ مسوح في بحثه حكما آخر في نفس السياق فيقول:

"ان التطور الكبير الذي حدث في المجتمعات خلال القرن العشرين كان ينبغي ان يقود الى اعادة النظر في النظريات والافكار الماركسية انطلاقا من منهج ماركس المعرفي، للوصول الى نظريات وافكار جديدة ملائمة للواقع المعاصر

وهذا عين الصواب ولكنه يعلل ذلك قائلا:

"ولكن هذا لم يحدث لان الماركسية اللينينية -نظرية- لايأتيها الباطل ولان كل افكارها صحيحة صحة مطلقة،ولان كتب ماركس وانجلس ولينين هي بالنسبة-للماركسيين- كالمعاجم تفتحها للوصول الى تفسير اية ظاهرة معاصرة،وستعطيك الجواب الشافي الكامل.فكتب المؤسسين لم تنسى شيئا. ومن هنا جاء القسر، فانت مضطر للبحث عما قاله احد المؤسسين عن ظاهرة مشابهة او قريبة، لتطبيقه على الظاهرة المعاصرة فكأن التاريخ يعيد نفسه وكأن الظاهرات الجديدة هي نسخ مطابقة لظاهرات سابقة تناولها ماركس وانجلس ولينين

وهكذا يعيد المؤلف سلسلة احكامه وينسب اخطاء الماركسيين الى خطيئتهم الاصلية وهي انهم اعتبروا الماركسية نظرية وليس نهجا. ترى لو فعلوا العكس هل كان ذلك يعصمهم من الضلال؟!

انني لا اقصد مطلقا ان الماركسيين لم يصابوا بالجمود العقائدي في القرن العشرين ولكنني اختلف مع الاستاذ في اسباب الضلال الفكرية فلا ارجعها الى النظرية الماركسية اللنينيةالتي لا يمكن فصلها عن المنهج -المادي الديالكتيكي التاريخي- كما انني لا ارى ان تاريخ الحركة الماركسية اللينينية -النظرية والممارسة- في القرن العشرين صيرورة فاشلة على العموم رغم النكسة التاريخية الاخيرة. فقد لعبت الماركسية اللنينية النظرية والممارسة دورا اساسيا في تغيير العالم، فتحت قيادتها تحرر نحو ثلث سكان العالم في اوربا واسيا من نير الاقطاع والرأسمالية والامبريالية. ويكفي ان نذكرمنها الثورتان

الروسية والصينية وسحق الفاشستية الدولية وتحطيم النظام الكولونيالي. وتدريب جيش جرار من الكوادرالعلمية والفنية من ابناء البلدان المتخلفة. كما ان محض قيام النظام الاشتراكي قد حمل الرأسمالية على ان تتغير وتتكيف مع الظرف العالمي الجديد وان تقتبس من الاشتراكية الفعلية بعض الاصلاحات الجوهرية لصالح الكادحين. وقد غدت كتب ماركس وانجلس ولينين مرشدا للحركات الثورية في مختلف القارات. ومن ابداعات النظرية الماركسية اللينينية نظرية التعايش السلمي بين الانظمة الاجتماعية المتعارضة التي صانت السلام العالمي وحالت دون قيام حرب عالمية ثالثة بامكانها القضاء على الحياة في الارض. والى جانب ذلك ارتكبت اخطاء فادحة في النظرية والممارسة ولا سيما في البناء الاقتصادي ادت الى كارثة اصابت الاشتراكية الفعلية في الاتحاد السوفيتي واوربا الشرقية. حيث ظهرت مفارقات مذهلة مثل انتاج ارقى ماكنة في العالم كمركبات الفضاء السوفيتية والعجز عن صنع حقنة تستعمل لمرة واحدة. وانتاج ٣٠ ألف رأس نووي أي ما يعادل ما انتجته الولايات المتحدة،أغنى دول العالم، والعجز عن توفير الخبز والزبدة واللحم بما يكفي للسكان. التصنيع السريع للاتحاد السوفيتي بحيث يصبح ثاني قوة صناعية في العالم خلال سنين معدودة والتلكؤ في ادخال الثورة العلمية التكنولوجية. وهكذا دواليك...

وفي الفصل الثالث من بحث الاستاذ مسوح المعنون (ادلجة الماركسية كأساس للانعزالية) ينتقل المؤلف من الهجوم على النظرية التي هي اساس الايديولوجيا الى مهاجمة الايديولوجيا. فلنبدأ اولا بالتعريف الماركسي للايديولوجيا:Ideology :- نظام من النظرات والافكار الاساسية والحقوقية والاخلاقية والجمالية والدينية والفلسفية. والايديولوجيا جزء من البنية الفوقانية. وباعتبارها هذا فانها تعكس اخيرا العلاقات الاقتصادية. وفي مجتمع الطبقات المتناحرة تنطبق الايديولوجيا على النضال الطبقي. ومن الممكن ان تكون الايديولوجيا علمية او غير علمية وانعكاساللواقع صادقا أم زائفا.

وتنشيء مصالح الطبقات الرجعية ايديولوجيا زائفة.أما مصالح الطبقات التقدمية الثورية فتعمل على تكوين أيديولوجيتها. والإيديولوجيا الماركسية اللينينية علمية تعبر عن المصالح الحقيقية للطبقة العاملة والاغلبية الساحقة من الانسانية الساعية الى السلام والحرية والتقدم. وقد انتشرت آراء تقول بتعارض الايديولوجيا مع المنهج العلمي بين الفلاسفة البرجوازيين في الخمسينات والستينات من هذا القرن. فقد اعتبروا الايديولوجيا شيئا ذاتيا وليس موضوعيا، يعبر عن مصالح بعض المجموعات والاحزاب.. الخ ومن هنا سعيهم لجعل الفارق بين العلم والايديولوجيا مطلقا، ولاصطناع التعرض بين الايديولوجيا والعلم، ومحاولتهم لنزع الايديولوجيا Deideologisation عن العلم والفلسفة، الامر الذي يؤدي عمليا الى فصل العلم والفلسفة عن النضال الطبقي. والى اضعاف دور الماركسية اللينينية – وهي الايديولوجيا التي تعطي تحليلا موضوعيا وعلميا صارما. وفي السبعينيات واصل الايديولوجيون البرجوازيون سعيهم وراء هذا الغرض مع عرض جديد (لاعادة الادلجة Reideologisation معارضين الماركسية بايديولوجيتهم الجديدة)

اما الاستاذ مسوح فيقول:

"كثيرا ما توصف الماركسية في ادبيات الاحزاب الشيوعية وفي كتابات المفكرين الماركسيين بانها (ايديولوجيا) كما ينظر اليها خصومها على انها كذلك. وانطلاقا من هذا الاعتبار ضييق الشيوعيون حدود الماركسية واعطوها قالبا طبقيا صرفا.. وإذا ما انطلقنا من ان الايديولوجيا هي وعي طبقي،هي ذلك الجانب المرتبط بمصالح طبقيةمحددة في الادراك الاجتماعي فان اية ايديولوجيا كانت هي لا موضوعية. او على الاقل تحمل في ذاتها بذور اللاموضوعية. وهذا ما وصف به ماركس وانجلس الايديولوجيا البرجوازية"

وهكذا بما ان ماركس وانجلس وصفا الايديولوجيا البرجوازية باللاموضوعية، فان اية ايديولوجيا كانت حتى ايديولوجية الطبقة العاملة هي

لاموضوعية او على الاقل تحمل في طياتها بذور اللاموضوعية، وهكـذا يمحـو الاستاذ مسوح كل فارق بين ايديولوجيا طبقة ثورية وبـين ايديولوجيـا طبقـة طفيلية رجعية. لانه يتجاهل الطبقات والصراع الطبقـي الـذي تعتـبرة النظريـة الماركسية القوة المحركة للتاريخ في مجتمع الطبقات المتناحرة. ذلك لانـه يكـره الايديولوجيا أيا كانت حتى اذا كـانت ماركسـية لانـه مغـرم بـالمنهج وكمـا تعهد في الفصل الاول بتخليص المنهج من النظرية واعادة الاعتبار للمنهج فانه في هذا الفصل يتعهد بايقاف الماركسية عل قدميها فيقول:

"وبهذا الوهم الايديولوجي اوقـف الشـيوعيون الماركسـية علـى رأسـها. عكس ما اراده ماركس. وحتى نوقفهـا علـى قدميهـا، ينبغـي ان ننظـر اليهـا كمنهج معرفي وكافكار للتقدم الاجتماعي والاشـتراكية وليـس كايديولوجيـا تعبر عن مصالح طبقية.

وكما خلص الاستاذ مسوح (المنهج المادي الديـالكتيكي التـاريخي) مـن النظرية الماركسية واعاد إليه الاعتبـار يخلـص هنـا (المنهـج المعـرفي) مـن اسـار الايديولوجيا الماركسية، وزيادة على ذلك يوقف الماركسية على قدميهـا،بعـد ان اوقفها الشيوعيون على رأسها.

يحارب الاستاذ مسوح الايديولوجيا الماركسية لانها ايديولوجيا طبقية لا موضوعيـة كمـا هـي الايديولوجيـا البرجوازيـةكما يصـر. ويريـد ان يجعـل الماركسـية ايديولوجيـا (اذا سمـح الاسـتاذ اسـتخدام هـذا المصطلـح الطبقـي البغيض) تقدمية للجميع، أي لاطبقية. وهو بهذا ينزع سـلاح الطبقـة العاملـة الايديولوجي، أي نزع سلاح من طرف واحد من طرفي الصراع الطبقـي لان البرجوازية لن تتخلى عن سلاحها الايديولوجي الهدام وهو اقوى اسلحتها في نضالها ضد الطبقة العاملة ومعولها المدمر ضد الاشتراكية الفعلية كمـا برهنـت السنوات الاخيرة والازمة الراهنة للحركة الشيوعية. ان الاستاذ مسوح يريـد ايقاف الماركسية على قدميها وانقاذ منهجها المعرفي، وينسى ان احد مؤسسي

الماركسية، انجلس، وليس شيوعيي اليوم هو الذي حلل نضال الطبقة العاملة باركانه الثلاثة:-الايديولوجي والسياسي والاقتصادي. وكتاب لينين (ما العمل؟) انطلق من هذا التحليل، واكد بخاصة على اهمية النضال الايديولوجي. ويلجأ الاستاذ مسوح لاثبات رأيه الى طريقته الخاصة في البحث او منهجه المعرفي فيجرد الايديولوجيا الماركسية من طابعها الطبقي ويختزلها الى مجرد "افكار للتقدم الاجتماعي"لالون له ولا رائحة ولا طعم.فالماركسية بمنظوره:-"كونها مجرد فكر للتقدم الاجتماعي هي اوسع بكثير من ان تكون ايديولوجيا "أي وعيا طبقيا" وهي اقرب بكثير لان تكون ابيستمولوجيا. فجانبها المعرفي هو العام اما جانبها الايديولوجي فهو ناتج عن عدم تعارض مصالح الطبقة العاملة مع مصالح التقدم الاجتماعي

وبعد ان جرد الماركسية من نظريتها واختزلها الى المنهج كما تقدم بنا عاد هنا الى اعتبارها نظرية عرفانية (ابستمولوجيا) واختزل(جانبها الايديولوجي) الى الخاص بالنسبة لنظريتها العرفانية التي هي العام. واختزل دور الطبقة العاملة الى مجرد عدم تعارض مصالحها مع مصالح التقدم الاجتماعي فجرده من رسالتها التاريخية التي شخصتها الماركسية وهي تحرير المجتمع والانسانية من الرأسمالية. ومن كل استثمار طبقي باعتبارها الطبقة الثورية الرئيسة وطليعة الشعب.

وإليكم كيف يضع الاستاذ مسوح الماركسية على قدميها بعد ان اوقفها الشيوعيون على رأسها "جراء الوهم الايديولوجي"فيقول:

"وقد يكون دافع الوهم الايديولوجي لدى الشيوعيين ناتجا عن فكرة ان الطبقة العاملة تجد سلاحها النظري في الماركسية. صحيح ان الماركسية سلاح بايدي دعاة التغيير. ولكن ليس لانها تنطلق من مصالحهم الطبقية، وانما لان مصالحهم منسجمة مع مصالح التقدم الاجتماعي التي تنطلق منها الماركسية اساسا"

ان قدمي الماركسية في نظر الاستاذ مسوح ليستا مصالح دعاة التقدم الاجتماعي أي الطبقة العاملة وسائر الكادحين بل هي "مصالح التقدم الاجتماعي او "فكرة التقدم الاجتماعي على حد تعبيره. وهكذا قلب العلاقة بين المادية والفكر. فالماركسية هي الراس المفكر لحركة الطبقة العاملة، هي وعيها الاجتماعي، هي رسالتها التاريخية فضلا عن انه يقلب هذه العلاقة العضوية الى علاقة جانبية كعلاقة أية فئة اخرى من دعاة التغيير، انه بهذه الطريقة يجرد الماركسية من القوة المحركة الرئيسة -حركة الطبقة العاملة، التي بدونها يستحيل تحقيقها- ويجرد الحركة من وعيها العلمي الطبقي الذي يستحيل من دونه تحريرها وبالتالي تحرير الانسانية من نير الرأسمالية وتحقيق الاشتراكية والشيوعية، فيوقف الماركسية على رأسها -الفكر- بدلا من القدمين -مصالح الطبقة العاملة وحركتها. ثم يتطرق الاستاذ مسوح الى احتمال تعارض "مصالح الطبقة العاملة -الانية- مع التقدم الاجتماعي ويضرب مثلا بادخال التكنولوجيا الحديثة الى عملية الانتاج الامر الذي يتفق مع مصلحة التقدم الاجتماعي ولكنه يسبب البطالة لكثير من العمال فيوصي الماركسيين بالوقوف الى جانب تطوير التكنولوجيا والنضال من اجل البحث عن اشكال تلافي البطالة وحماية حقوق العمال ويستدرك قائلا:

"اما إذا انطلق الماركسيون من منطلق ايديولوجي، فانهم سوف يقفون ضد التكنيك لانه يسبب البطالة ويلحق الضرر بالطبقة العاملة"

ترى باية حيلة منطقية تذرع الاستاذ مسوح ليضع هذا التعارض بين الايديولوجيا الماركسية للطبقة العاملة وبين مصالحها الطبقية؟ احزر!

ان الايديولوجيا الماركسية كما هو معروف وكتاب ماركس (رأس المال) بالاخص يرينا افق التقدم الذي بانت طلائعه اليوم في الثورة العلمية التكنولوجية التي ستحقق فيض الانتاج الضروري لتحقيق الشيوعية (من كل انسان حسب طاقته ولكل انسان حسب حاجته) وفي نفس الوقت سوف

تحرر العامل من عملية الانتاج وتجعله موجها لها ورقيبا مبدعا للعملية. ولكن الاستاذ يضرب صفحا عن التوافق بين الايديولوجيا الماركسية،رسالة الطبقة العاملة وبين التقدم الاجتماعي بكل ابعاده، وكيف توصل الى ذلك؟ ببساطة انه أضاف (الآنية) بين هلالين بعد (مصالح الطبقة العاملة) مباشرة. وهذه المصالح الآنية للطبقة العاملة لا يمكن الاستخفاف بها بأي حال من الاحوال. فمن دون النضال العنيد من اجل هذه المصالح تتحول الطبقة العاملة الى طبقة من الشحاذين. و لم يسجل التاريخ ان ثورة اجتماعية حققها الشحاذون او البروليتاريا الرثة. لهذا بالضبط، ومن اجل الثورة الاجتماعية التي تحرر الجنس البشري من الرأسمالية، من اجل اقصى التقدم الاجتماعي يجب ان يدافع العمال عن اثمن مصالحهم، كما يقول الشيوعيون أي بالضبط عن المصالح الانية للطبقة العاملة. وماركس لم يغفل المصالح الآنية للطبقة العاملة عندما عرف الاشتراكية بمجتمع الانتاجية الاعلى. فقد علمنا ماركس نفسه ان نفرض على الرأسماليين تحمل النتائج السلبية لادخال التكنولوجيا الحديثة،كالبطالة. وذلك بتقصير يوم العمل. فلو انقصت ساعات العمل في الولايات المتحدة الامريكية التي تتمتع باعلى تكنولوجيا، لو انقصت ساعة واحدة في اليوم لامكن تشغيل العشرة ملايين عامل امريكي هم العمال العاطلين اليوم في الولايات المتحدة ولتحول الكساد السائد فيها الى رواج، ولما تأثرت ارباح الرأسماليين بل لزادت. فلماذا إذن لا يوافق الرأسماليون على تخفيض ساعات العمل؟ انهم لا يريدون تعويد العمال على يوم عمل قصير لانه يفسح لهم المجال لتثقيف انفسهم والتفكير بالطلاق من الرأسمالية. كما ان الراسماليين يريدون استخدام جيش العمل الاحتياط أي العاطلين عن العمل لفرض شروطهم على العاملين. وتعويد العمال على يوم العمل الطويل بالاجور الراهنة احتياط لفترة الرواج كما تلعب المزاحمة بين الدول الراسمالية دورها في اطالة يوم العمل او عدم تقصيره. وفي اليابان التي تتمتع بتكنولوجيا

منافسة للتكنولوجيا الامريكية يموت العمال فعلا من جراء يوم العمل المكثف الطويل بسبب المزاحمة الفتاكة بينها وبين سائر البلدام الرأسمالية.

والحق ان الاستاذ مسوح ينصح الماركسيين"ان يناضلوا من اجل البحث عن اشكال لتلافي البطالة وحماية حقوق العمال) ويتجنب الاشارة الى النضال الطبقي من اجل المصالح (الآنية) للطبقة العاملة دون ان يفوته القول "وقد يكون مثل هذا الموقف النابع من الوهم الايديولوجي احد الاسباب الهامة للتخلف التكنولوجي في البلدان الاشتراكية"

ان التخلف التكنولوجي في البلدان الاشتراكية هو احد الاسباب الهامة للازمة الحالية، ولكن لايرجع سبب ذلك للايديولوجيا الماركسية وانما لاسباب اخرى لا مجال لذكرها في هذا المجال.

وفي الفصل الخامس والاخير المعنون "تطوير الفكر الماركسي بالاداة المعرفية الماركسية ذاتها" يقول الاستاذ مسوح:

"لقد تجمدت الماركسية لا لأنها فكر للجمود بل لان الماركسيين تعاملوا معها كنظرية وكايديولوجيا وتجاهلوا منهجها المعرفي ونزهوا نصوصها عن النفي والبطلان"

ويقدم لنا ثلاثة من "المتطابقات او الثنائيات التي يمكن اعتبارها من المقولات الخاصة بتطوير الفكر

ويوحي "بان ادراك هذه الثنائيات من قبل الماركسيين مهم جدا لدفع صيرورة الفكر الماركسي والاشتراكي بعامة الى الامام في مواكبة صيرورة الحياة الواقعية

وفيما يلي يختزلها للقاريء:

"الثنائية الاولى:-(المنهج-النص)

"١-النص تعبير عن المنهج ونتيجة لتطبيقه على ظاهرة محددة (جانب الوحدة)

"٢-النص يصبح قيدا للمنهج نتيجة لتغيرالظروف الزمانية والمكانية (جانب التناقض)

"٣-النفي المستمر للنصوص (الحل الجدلي للتناقض)"

استخدم الاستاذ مسوح هنا هذا الاصطلاح الفضفاض (النص)الذي قد يعني أي شيء تحاشيا لذكر (النظرية) واصطنع (تناقضا) بين (النص) و(المنهج) ولحل هذا التناقض يضحي بالنص دون المنهج اذ ينفي الاول نفيا عدميا كعادته ويلاحظ القاريء ان الثنائيات قد صيغت على منوال ثلاثيات هيجل:-الطريحة- النقيضة- الجميعة.وانه انهى الثنائيتين الاولى والثانية نهاية سلبية:

"الثنائية الثانية:-(النص- الواقع)

"١-النص انعكاس ذهني، استخلاص نظري، لدراسة منهجية لواقع محدد (جانب الوحدة النسبية والمؤقتة)

"٢-النص يدخل في تناقض مع الواقع منذ لحظة وضعه فيكف عن التأثير فيه وحتى عن تفسيره (جانب التناقض)

"٣-حاصل جمع الثنائيتين الاولى والثانية:-المنهج-الواقع- النص (الحل الجدلي للتناقض)

"نفي النصوص باستمرار من خلال الدراسة المنهجية للواقع المتطور.

هنا لاول مرة يستخدم (الاستخلاص النظري) ومع ذلك لايقول (نظرية) ويريد بالنفي المستمر للنصوص كما سبق ان قلنا النفي العدمي أي الافناء وهو منافي لديمومة المعرفة الانسانية والطبيعة والمجتمع.

"الثنائية الثالثة:-(المنهج-الواقع)

١-المنهج تراكم في الفكر الذي هو انعكاس للواقع المتطور.(جانب الوحدة)

"٢-الواقع يكوّن المنهج ويغنيه ويدفعه باستمرار.(جانب التناقض)

"٣-اغناء المنهج استنادا الى غنى الواقع.ومحاورة المناهج المعرفية الاخرى والتفاعل معها (الحل الجدلي للتناقض)"

وهكذا فان النص والمنهج (انعكاس ذهني للواقع المتطور) أو (تراكم في الفكر) ومع ذلك فان الواقع يحابي المنهج دون النص، (إذ يغني الاول ويدققه باستمرار) في حين (ينفي) الثاني و (يفنيه باستمرار)بناء على رغبة الاستاذ ليس إلا!

اما الماركسية فتكشف العلاقة بين نظرية المعرفة ومنهجها على نحو اخر فنظرية المعرفة او (الابستمولوجيا)فرع من الفلسفة يعني بالعلاقة بين الذات والموضوع في عملية النشاط المعرفي وعلاقة المعرفة بالواقع وامكانية الانسان ان يعرف العالم ومعيار الحقيقة وصحة المعرفة. وتدرس نظرية المعرفة جوهر الموقف العرفاني للانسان من العالم.وبناء عليه فان كل نظرية للمعرفة تنطلق حتما من حل محدد للمسألة الاساسية في الفلسفة.. وهذه تعني ان جميع انماط النظرية العرفانية تنقسم الى مادية أو مثالية. ان الديالكتيك المادي تعليم فلسفي بشأن المعرفة، والمنطق الماركسي ونظرية المعرفة الماركسية. وهكذا فان قوانين الدياليكتيك ومقولاته، وهي انعكاس لقوانين التطور الشاملة للعالم الموضوعي، هي الصور الشاملة للفكر المدرك. وعليه فان النظرية العرفانية الماركسية تتميز عن الابستمولوجيا الماضية ليس فقط في كونها قوانين خاصة للمعرفة بل في كونها ايضا ثمرة تاريخ المعرفة للعالم. وهذا يعني في الفلسفة الماركسية اللينينية ان العرفانية الخاصة بالعلاقة بين الوعي والمادة وبين الفكري والمادي ومعيار المعرفة الصحيحية، والعلاقة بين الحسي والمنطقي والانعكاس و...الخ انما تدرس على اساس المنهج الدياليكتيكي الماركسي، وبالعلاقة الوثقى بالمادية التاريخية التي تتيح الكشف عن جوهر معرفة الانسان للعالم بواسطة تحليل نشاطه العملي التحويلي.

وهكذا يرى القاريء كيف ان المنهج العرفاني الماركسي يندمج بنظرية المعرفة وهذه تتحد بالمادية التاريخية، فرعي الفلسفة، تتحد جميعا في وحدة

عضوية لمعرفة الطبيعة والمجتمع. ان معارضة نظرية المعرفة بالمنهج العرفاني يؤدي الى تعطيل دورهما في التعريف الوارد اعلاه للنظرية العرفانية الماركسية:-انها قوانين خاصة للمعرفة أي انها منهج. خلافا للتجريدات الميتافيزيائية التي جاءنا بها الاستاذ مسوح في بحثه قيد المناقشة.

ولنتابع تاريخ نظرية المعرفة الذي بدأبالسؤال:-ما هي المعرفة التي تطرح على الفلسفة (سؤال افلاطون) مع ان مصطلح (نظرية المعرفة) ظهر بعد ذلك بوقت طويل وفي تاريخ الفلسفة لعبت قضايا نظرية المعرفة دورا مهما دائما، وفي بعض الاحيان احتلت المكانة المركزية. وفي بعض تيارات الفلسفة البرجوازية (الكانتية، الماخية) اختزلت الفلسفة الى نظرية المعرفة.

ان التطور السريع لطرق البحث العلمية الخاصة (مثلا المنطق الرياضي السيميوطيقية السيكولوجيا) يؤدي في نظر بعض الوضعيين والعلماء الذين يشاركونهم الرأي الى تصفية نظرية المعرفة بوصفها علما فلسفيا. بيد ان المادية الديالكتيكية تؤكد على ان تطور الطرق العلمية الخاصة في البحث لايمكن من حيث المبدأ ان يبتر القضايا الفلسفية في نظرية المعرفة بل على العكس من ذلك فان هذا التطور يحفزها ويطرح المزيد والمزيد من القضايا على نظرية المعرفة (فمثلا دراسة امكان اتمتة العمل الذهني)

ان نظرية المعرفة المادية-الديالكتيكية تستخدم في تطورها المعطيات التي تقدمها العلوم العرفانية الخاصة الحديثة وتكون اساسها الفلسفي المنهجي.

وهكذا فليس الشيوعيون وحدهم لايستطيعون الاستغناء عن النظرية بل علماء الطبيعة والاجتماع والاخرون ايضا. والمنهج الديالكتيكي لا يلغي المناهج العلمية الخاصة بل يرشدها وبالمقابل يغتني بها.

والنظرية بالنسبة للشيوعيين اليوم في الازمة الراهنة والضياع، سراج يهديهم الى سواء السبيل، وهي النظرية الماركسية اللنينية، ومنهجها الديالكتيكي. فبعد اندحار الثورة الروسية الاولى (١٩٠٥-١٩٠٧) شاع

التفسخ ايضا في الحركة الماركسية فشخص لينين اهم واجب على الماركسيين لمكافحة التفسخ هو النضال دفاعا عن المباديء الماركسية.وانبرى لينين نفسه للدفاع عن فلسفة ماركس المادية الديالكتيكية ضد التحريفية. وكل ماركسي ملتزم مدعو اليوم للنضال دفاعا عن الماركسية ضد محاولات تصفيتها كنظرية مرشدة للعمل.

ان خطر تنظيرات الاستاذ مسوح علينا ونحن الان ملتزمون بتجديد نظريتنا الماركسية اللينينية هو ان نضعها جانبا.!. اما للتخلي عنها كليا ونعتمد على (المنهج) وحده او ان نبتدع نظرية جديدة لا علاقة لها بالنظرية القديمة.. وقد انتقد مثل هذه المحاولة ثوريون من امثال جمال عبد الناصر وهواري بو مدين إذ قالا بصدد النظرية الاشتراكية:- انهما لا ينويان اكتشاف البلرود من جديد. اعترافا منهما بصحة اشتراكية ماركس العلمية (النظرية) وبتجربة الاشتراكية الفعليةالتي هي مدرسة للجميع بسلبياتها وايجابياتها، بحقائقها واخطائها.

وكلما اطلت التفكير في وصف الاستاذ مسوح لكتب المؤسسين احسست بما يوحي بالعزوف عنها والاستخفاف بها..كما لو انها اصبحت كتبا بالية بمرور الزمن عليها، حوالي القرن.ان الماركسي حقا يجب ان يستشير ولا يستخير كتب ماركس وانجلس ولينين لا لينام عليها ، بل لانها ضرورية من وجهة نظر (المنهج المادي الديالكتيكي التارخي) الذي يتعصب له الاستاذ مسوح ضد النظرية.

ان التخلي عن النظرية الماركسية اللينينية وما احتوته كتب المؤسسين لا تؤدي بنا إلا الى الضياع الحقيقي وحرمان الاجيال الحالية والمستقبلية من الاساس النظري الذي يغذون به عقولهم ويسترشدون به للانطلاق لتطويرالنظرية وتطوير العلم وتغيير المجتمع الانساني، والى تجريد الطبقة العاملة من ايديولوجيتها ورسالتها التاريخية.

الفصل الثاني

المرحلة اللينينية من الماركسية أو الماركسية اللينينية

في الفصل الاول من (وحدة المنهج والنظرية) ناقشنا بحث عطية مسوح المعنون:-(نظرية ماركسية لينينية ام منهج مادي جدلي تاريخي؟) وفي هذا الفصل سنجادل الاستاذ على الفصل الثاني من بحثه المعنون:-(الماركسية- والماركسية اللينينية - أو النموذج الروسي)

ولكن مقدما اريد ان الفت نظر القاريء الى ما ورد في بداية البحث المذكور:-"اذا كان اعتبار الانهيارات المذهلة نتيجة التآمر الامبريالي الصهيوني هو اسهل التفسيرات...فانه باعتقادي ليس اكثرها صحة، بل ليس صحيحا على الاطلاق"

اما انا فالحق انني اعارض هذا النفي المطلق على وجه الاطلاق واسوق لاطلاع القاريء الاستشهاد التالي من طرف ثالث:-كان الرؤساء الامريكيون قبل كندي قد ترددوا وتعثروا في اختيار الاسلوب الامثل الذي تستطيع به الرأسمالية الامريكية ان تنافس وتقهر الشيوعية السوفيتية، فقد اتجه ترومان (١٩٤٥-١٩٥٢) الى المواجهة العسكرية. فوقعت الحروب المحلية في البلقان وايران وفي كوريا. واتجه ايزنهاور (١٩٥٣-١٩٦٠) الى اسلوب

الردع النووي الشامل. ولكن هذا الاسلوب فقد مصداقيته لان احدا لم يكن مستعدا للوصول الى حافة الهاوية كما كانوا يسمونها. ثم جاء كندي (١٩٦١) واعتمدت ادارته بكل ما فيها من كبار المفكرين:-روبرت مكنمارا، مارك جورج باندي، اثر شليزنجر، كينيت جالبرايت وغيرهم، اسلوبا آخر، لاهو الردع ولكن سباق التسلح. وكان مكنمارا وزير الدفاع في عهد كندي هو اصرح من عبر عن سياسة كندي في محاضرة امام اساتذة كلية الدفاع الوطني في واشنطن في (١٤/سبتمبر١٩٦١) بقوله: علينا ان نرغم الاتحاد السوفيتي على تغيير اولوياته. ان النظام الشيوعي يعد جماهيره بمجتمع من الرفاهية، ينتفي فيه الفقر، ومجتمع من المساواة ينتفي فيه التمايز الطبقي. ولتحقيق هذه الاهداف، فان الاتحاد السوفيتي مطالب بان يضع التنمية كاولوية اولى قبل الامن. وعلينا ان نرغمه على ان يرفع اولوية الامن ويضعها قبل التنمية. وعلينا ان نشده الى سباق سلاح يقطع انفاسه ويرهن موارده ويتركه في النهاية ترسانة نووية بدون رغيف خبز او قطعة لحم، وكذلك فان غلبة الامن على الاولويات السوفيتية سوف تنعكس من الخارج الى الداخل فتزيد تركيز السلطة في يد المسؤولين عنه في اجهزة الحزب والدولة، مما يباعد بينهم وبين عامة الناس ويعزلهم. (محمد حسنين هيكل. حرب الخليج-اوهام القوة والنصر-المقدمة ص ٩)

وهكذا نرى ان الذئب الامبريالي الصهيوني لم يكن بريئا من دم يعقوب الاشتراكي. ومع ذلك فما من احد يستطيع ان يسيء الى الاشتراكية بقدر ما يستطيعه الاشتراكيون انفسهم كما قال لينين.

فلنعود لمناقشة الفصل الثاني حيث يتساءل الاستاذ مسوح عن دقة مصطلح (الماركسية اللينينية) فيلقي عليه ضلا من الشك منذ باديء ذي بدء. إذ ينسب صياغته الى ستالين وبما ان هذه النسبة ليست دليلا بحد ذاتها على بطلان المصطلح، فقد انتقل المؤلف الى تحليل دور لينين في اغناء الماركسية ليرى ما إذا كان هذا الدور يستحق ان يؤهل صاحبه لمشاركة ماركس

مشاركة الند للند وفضلا عن ذلك ليرى ما إذا كانت الثورة الروسية وكل ما تمخضت عنه تستحق اكثر من كونها (تراثا للاطلاع) وحسب.

ويقارن الاستاذ مسوح بين تراث انجلس الفكري وتراث لينين، فيرجح الاول على الثاني ويتساءل:

"فلماذا يختفي اسم انجلس وتصبح النظرية هي (الماركسية اللينينية)؟! وإذا افترضنا ان الانجلسية متضمنة في (الماركسية) فان اللينينية هي كذلك ايضا لان لينين لم يكن إلا ماركسيا" ثم يضيف:

"ان اغلب نشاطات لينين الفكرية هي روسية الطابع أي انها تدخل في إطار انتاج الماركسية روسيا.. وهذا الجانب لا يهمنا نحن غير الروس إلا من الزاوية التراثية، من زاوية الاطلاع على تجربة الحركة الثورية في مختلف البلدان. اما نشاطات لينين الفلسفية فهي ليست اكثر قيمة من نشاطات بليخانوف مثلا..فلماذا تختفي البليخانوفية من تسمية (الماركسية اللينينية)؟!

قبل كل شيء اود ان اذكر القاريء ان جميع الشيوعيين بمن فيهم الشيوعيون الاوربيين كانوا يمجدون المعلمين الثلاثة:-ماركس،انجلس، لينين، على السواء وحسب التسلسل التاريخي وفي الصور الرمزية للمعلمين الثلاثة بريشة الرسامين الروس لم يتميز الا ماركس بسيمائه الاسدية. واعظم تمجيد ناله لينين هو (ماركس زماننا).

وهناك اجماع بين الشيوعيين على تسمية الماركسية اللينينية بتعاليم: ماركس، انجلس، لينين. وقد عاش ماركس وانجلس في زمن واحد حتى وفاة ماركس قبل ١٢ سنة من وفاة انجلس. وقاما بمهمة تاريخية واحدة وكل عمل هام من اعمالهما كان مشتركا بينهما الى هذا الحد او ذاك. وبعد وفاة ماركس قال انجلس:-"انه كان بمقدوره ان يضع الماركسية لوحده اما انا فلم اكن قادرا على ذلك..ان ماركس كان يعزف على القيثار الاولى اما انا فعلى الثانية..

لقد بالغ انجلس في تواضعه هذا لحساب صديقه الراحل. وقد قدر لينين عبقرية مؤسسي الماركسية بدقة وقال: ان ماكس كان اعمقهما فكرا.

و لم يظهر في حياة انجلس وبعد وفاة ماركس تيار انتهازي داخل الحركة الماركسية بل كانت الانتهازية خارج الصف الماركسي عهد ذاك. أما لينين فقد برز كماركسي بعد وفاة انجلس وفي حقبة تاريخية جديدة عندما تحولت الرأسمالية الى رأسمالية امبريالية. وظهرت في الصف الماركسي بالذات ميول انتهازية وشوفينية وبرز لينين على رأس التيار الماركسي الثوري الاممي.

لقد طور لينين الماركسية في جميع مجالاتها. ففي عام ١٩٠٨ الف عمله الفلسفي الاساسي (المادية والنقد التجريبي) الذي اعطى فيه تحليلا عميقا لاخر منجزات العلوم الطبيعية على ضوؤ الفلسفة المادية الدياليكتيكية وطور المباديء الاساسية للفلسفة الماركسية ولا سيما نظريتها العرفانية. كما ان نقده للماخية لم يفقد شيئا من اهميته حتى يومنا هذا، فانه يعلم الماركسيين كيف يناضلون ضد الفلسفة الرجعية. وبحمية طرح لينين مسألة الحزبية في الفلسفة مطالبا الماركسيين ان يناضلوا بصدق وثبات ضد أي طراز وكل طراز من المثالية او الميتافيزيائية. وقد عمل بجهدلتطوير الدياليكتيك(المنهج) والمنطق ونظرية المعرفة. وفيه اعطى لينين تحليلا شاملا للمسألة الاساسية في الفلسفة:-المادية ام المثالية؟ هل يمكن معرفة العالم ام لا يمكن؟ كما عرف اهم مقولات الفلسفة الماركسية:-المادة،الحركة، الزمان، المكان،السببية، الحرية، والضرورة.

وطور لينين تطويرا خلاقا نظرية المعرفة الماركسية ولا سيما نظرية الانعكاس ودور الممارسة في المعرفة ومكان الاحساسات ودورها في الادراك. والحقيقة الموضوعية، والعلاقة بين الحقيقة المطلقة والنسبية. والقضايا الاساسية في المادية التاريخية. ومما له اهمية خاصة تعميم لينين للمعطيات الجديدة التي كدستها العلوم الطبيعية وقد سجلت الاكتشافات الفيزيائية الباهرة في ملتقى

القرنين بداية ثورة في العلوم الطبيعية. ولكن هذه الاكتشافات تمخضت عن ازمة حادة في تطور العلوم الطبيعية، ازمة ارتبطت ارتباطا وثيقا بالمثالية الفيزيائية. وقد عرى لينين الجذور الطبقية والعرفانية لهذه المثالية. وبرهن على ان الاكتشافات الجديدة في الفيزياء ابعد ما تكون من ان تفند المادية وانما على العكس جاءت برهانا جديدا للمادية الدياليكتيكية.

وبعد ان لخص لينين آخر المنجزات العلمية،برهن برهانا مقنعا على الاهمية العظيمة لمنهج الدياليكتيك المادي لتقدم العلم وللتغلب على الازمة في صفوف العلوم الطبيعية.

وقد طور لينين تطويرا شاملا الدياليكتيك المادي بتطبيقه على ظروف الحياة الاجتماعية الجديدة.

لقد بزّ لينين بليخانوف في تطوير الفلسفة الماركسية لا بكثرة مؤلفاته في هذا المجال بل في تعميق الفلسفة واتقانها. فمثلا في قانون (وحدة الاضداد وصراعها) ضرب بليخانوف الامثلة فقط في حين طوره لينين واتقنه واستكمله من جميع الجوانب باعتباره القانون الرئيس في الدياليكتيك.

وفي خلال الحرب العالمية الاولى توقع لينين دنو الثورة البروليتارية التي انضجتها ظروف المجزرة البشرية. فكرس جهدا خاصا لدراسة الفلسفة باعتبارها مرشدا للانسانية في محنتها التاريخية. والف كتابه (الدفاتر الفلسفية) وفيه طور الدياليكتيك المادي ووضع برنامج لهذا التطور.

وفي ميدان الاقتصاد السياسي اكتشف القوانين الاقتصادية والسياسية المتحكمة في تطور الرأسمالية في المرحلة الامبريالية، متابعا تحليل الرأسمالية على منوال ماركس. وإذا كان تطور الظروف التاريخية قد خلف بعض استنتاجات لينين في هذا الصدد الى الوراء فهذا يحدث لكل علم ولكل عالم بمن فيهم ماركس وانجلس وسائر الماركسيين. فالظروف تتغير باستمرار وعلى العلماء

ان يتابعوا هذا التغيير ويأخذوه بالحسبان. وكذلك خلف لنا لينين بحوثا قيمة عن الرأسمالية في الزراعة وهذا موضوع بالغ الاهمية وبالغ الصعوبة.

وابرز منجزات لينين العلمية في علم الثورة:- الثورة الاشتراكية والانتفاضة المسلحة. وقد طور لينين نظرية ماركس في الثورة غير المنقطعة: من الثورة الديموقراطية بقيادة الطبقة العاملة الى الثورة الاشتراكية، وحلف العمال والفلاحين. و لم يكن ذلك شأن خاصا بروسيا و لم يطبق في الثورة الروسية فقط بل في عدة ثورات اخرى كالثورة الصينية والفيتنامية وغيرها التي شملت نحو ثلث سكان العالم، أي اربعة او خمس امثال شعوب روسيا مع الاخذ بالاعتبار اختلاف تلك البلدان في ظروفها التاريخية والوطنية. وقد ادت هذه المنجزات مهمتها التاريخية. وإذ تغيرت الظروف فان ذلك يستدعي تطوير النظرية وهذه مهمة الاجيال الحالية والمقبلة من المنظرين.

كان بليخانوف اكبر من لينين سنا باربعة عشر عاما، وعندما كان عمر لينين لايتجاوز (١٣) سنة اسس بليخانوف اول منظمة ماركسية روسية في سويسرا باسم (جماعة تحرير العمل) التي اسست الحركة الماركسية في روسيا وحققت انتصارها في الحركة الثورية على النارودنية (الشعبوية) ولا تزال كتبه تحتفظ بقيمتها الكبرى التربوية في دراسة الفلسفة والسوسيولوجيا. ومن المآخذ على فلسفته التقليل من دور الذات في التطور التاريخي، ومع ذلك فقد طور الفلسفة الماركسية واغناها وجعلها في متناول طلابها. ولاسلوبه الأخاذ قيمة تربوية عظيمة فضلا عن مضمونه الفلسفي العميق.

اما في الممارسة السياسية، في النضال الطبقي للبروليتاريا فلم يلتق علم بليخانوف بعمله، بل افترقا منذ انضمامه الى الانتهازيين (المنشفيك) عام١٩٠٣ وافدح اخطائه موقفه الشوفيني في الحرب الامبريالية العالمية (١٩١٤-١٩١٨) وكان هذا الموقف خيانة للاممية البروليتارية، اممية ماركس وانجلس وشعارها (ياعمال العالم اتحدوا). لقد ايد بليخانوف الامبريالية

القيصرية الروسية في الحرب تحت الشعار المزيف (الدفاع عن الوطن) والحال دخلت القيصرية الحرب لأعادة اقتسام المستعمرات والبلدان التابعة بين الضواري الامبريالية. وكان شعار الدفاع عن الوطن تضليلا للطبقة العاملة ليذبح بعضها بعضا:- العامل الروسي يذبح العامل الالماني والالماني يذبح العامل الفرنسي وهلمجر... وبقي لينين امينا للاممية البروليتارية امانة ماركس وانجلس لها وكان يرى ان وحدة عمال العالم اهم من وحدة عمال البلد الواحد. لان انقسام عمال العالم يعني تذابحهم. وقد صمد لينين والبلاشفة بوجه الطوفان الشوفيني الذي اطلقته الامبريالية وصاغ شعار:- تحويل الحرب الامبريالية الى حرب اهلية لأسقاط النظم الامبريالية وانهاء حربها. ولم يكن هذا الشعار موجها للعمال الروس وحدهم بل للطبقة العاملة في جميع البلدان المتحاربة. ولو لم يكن للينين سوى هذا الموقف الاممي من الحرب الامبريالية لكفى ذلك لجعله ممثلا للماركسية الثورية الاممية. وخلال الحرب العالمية الاولى كان كل اشتراكي ثوري اميا وكل اشتراكي اممي ثوريا وغدا كل اشتراكي انتهازي، اشتراكيا شوفينيا.

بيد ان تلك لم تكن مأثرة لينين الوحيدة التي اهلته لقيادة الحركة الماركسية الاممية ولمواصلة تطوير الماركسية نظريا واستعمالها منهجا لتغيير العالم وقد انتصر في هذا الشأن انتصارا تاريخيا مشهودا.

ان تقليل الاستاذ مسوح من شأن افكار لينين بوصفه لها (روسية الطابع) واختزاله اياها الى (تراث للاطلاع) قد وجه في الماضي الى افكار ماركس وانجلس. فالبيان الشيوعي الشهير (المانيفستو) لم يكن سوى برنامج لجمعية سرية المانية، ولكنه ما لبث ان غدا دستورا عالميا للشيوعيين في كل مكان، و (رأس المال) وهو اهم كتاب ماركسي كان دراسة عن الرأسمالية في بريطانية فاصبح مدرسة للجميع..ان الاستاذ مسوح رغم تبنيه (المنهج المادي الجدلي التاريخي) يتجاهل علاقة الجزء بالكل الدياليكتيكية:-تجربة قطر معين بالنسبة لجميع الاقطار.. ولا يعير اهتماما للنضال الطبقي ولعلم الثورة ومن هنا قلة

اكتراثة بالثورة الروسية اما لينين معلم الثورة فقد درس تاريخ الثورات واستخلص منه الدروس وطبقها في الثورة الروسية بابداع. وقد تعلمت ثورات اخرى من الثورة الروسية ومنها الثورة الصينينية.. والحال ان البرجوازية العربية لم تتردد في الاقتباس من الثورات البرجوازية الغربية ولاسيما من الثورة الفرنسية الكبرى على بعد الزمان والمكان واختلاف الظروف التاريخية. ان روسيا ليست قطرا من حجم فرنسا او بريطانية بل قارة كبرى تشغل سدس اليابسة. كانت تتعايش فيها انماط اجتماعية شتى من رأسمالية الدولة الاحتكارية الاشد تركيزا الى بقايا من الشيوعية البدائية والقبلية وما قبل الاقطاعية. وكانت تمتد كجسر بين مراكز الامبريالية في الغرب واطرافها في الشرق. وقد جاءت ثورتها في المرحلة الامبريالية فاتحة عصر الثورة في آسيا وافريقيا. فكيف يمكننا اختزال تجربة الثورة الروسية اللينينية التي عكست تلك التجربة الى محض تراث للاطلاع؟! في حين يدرس العسكريون حتى حروب اسكندر المقدوني وهنيعبال التونسي لا مجرد للاطلاع على التراث العسكري بل لاستنباط الدروس للعلم العسكري واغنائه. فلماذا لا نتعلم فن الانتفاضة مثلا من لينين؟!

ويوزع الاستاذ مسوح نشاط لينين الفكري على ثلاث ميادين:

-ميدان روسي:- محتواه اعادة انتاج الماركسية روسيا. أي وفق ظروف روسيا وخصائصها ويدخل في هذا الاطار ما وضعه من افكار حول (الحزب من طراز جديد) و (دكتاتورية البروليتاريا) و تحالف العمال والفلاحين) وتصوراته حول طرق بناء الاشتراكية وغير ذلك..؟!

-ميدان يعد دفاعا عن افكار ماركس وانجلس وتوضيحا لها.. ويدخل في هذا الاطار:- ما كتبه حول المادية والمذهب النقدي التجريبي والدولة والثورة وغيرها.

-ميدان ثالث:- يعد تطويرا لأفكار ماركس وانجلس واستكمالا لها وذلك بدراسة ظاهرات لم تكن واضحة في ايامهما كدراسته للامبريالية.!

في الميدان الاول وحسب تعبير الاستاذ مسوح (ميدان روسي) وحصر اهميته بالاطلاع فقط ووضع دكتاتورية البروليتاريا والحزب من طراز جديد وحلف العمال والفلاحين، في حين وضع عمل لينين (الدولة والثورة) في الميدان الثاني وحسب تعريفه (ميدان يعد دفاعا عن افكار ماركس وانجلس وتوضيحها) وكل مطلع على كتاب لينين هذا يرى ان محوره هو دكتاتورية البروليتاريا وكل من له المام بموضوع دكتاتورية البروليتارية يعرف ان مرجعه الرئيس لدراستها هو كتاب لينين (الدولة والثورة) فما الداعي لهذا التوزيع المفتعل للشيء نفسه؟! في الحقيقة ان تبويب الاستاذ مسوح لنشاط لينين الفكري تبويب مصطنع. فقد اخذ لينين حتى في اعماله الفلسفية بعين الاعتبار (ظروف روسيا وخصائصها)أي التيارات الفلسفية في روسيا وليس فقط فيما يتعلق بروسيا حصرا، هذا اولا، وثانيا، دافع لينين في جميع اعماله عن افكار ماركس وانجلس واوضحها بما في ذلك ما كان خاصا بروسيا. وبما في ذلك دكتاتورية البروليتاريا والحزب الشيوعي من طراز جديد وحلف العمال والفلاحين ويجد المتتبع اصول هذه الافكار في اعمال ماركس وانجلس. وثالثا:-طور لينين افكار ماركس واستكملها في جميع اعماله بناء على تطور الواقع في زمانه ولم ينم على الماركسية كما قالت روزا لوكسمبرغ بحق زعماء الاممية الثانية الاخرين. وتتجلى امانة لينين للماركسية في تطويره اياها وقد طورها فعلا في كل اتجاه وفي كل ركن من اركانها ولا سيما الفلسفي.

فبعد اندحار الثورة الروسية الاولى (١٩٠٥-١٩٠٧) تفشت الازمة والتفسخ في الصف الماركسي ولا سيما في الميدان الفلسفي حيث طرحت الماخية كبديل للماركسية. وشخص لينين الحلقة المركزية في النضال ضد الازمة:-الدفاع عن اهم مباديء الماركسية وفلسفتها المادية الدياليكتيكية.

و لم يكن كتابه (المادية والنقد التجريبي) محض دفاع عن الفلسفة الماركسية بل تطويرا واستكمالاها.

وفي الازمة الراهنة وهي اعمق بما لايقاس جراء السقوط من ارتفاع اعلى بما لايقاس يجب ان يكون المنطلق في تجديد الماركسية اللينينية على اساسها الفلسفي وإلا كان (التجديد) مسخا، او القاء الطفل مع ماء الغسيل حسب التعبير المجازي الشائع في يومنا هذا.

ومن بين افكار لينين التي وضعها الاستاذ مسوح (وفق ظروف روسيا وخصائصها) والتي قال عنها (لاتهمنا نحن غير الروس إلا من الزاوية التراثية، من زاوية الاطلاع على تجربة الحركة الثورية في مختلف البلدان) ويخص منها (تصوراتها- يعني لينين حول طريق بناء الاشتراكية)..يضعنا الاستاذ مسوح إزاء محض (تصورات حول طرق بناء الاشتراكية)! بمثل هذا الاختزال يقيم الفكر الذي قاد اعظم تجربة اجتماعية في تاريخ العالم، تجربة بناء مجتمع جديد بلا مستثمرين، ودولة جديدة للعمال والفلاحين بدون سابق يحتذى به، وفي بلد كان في مؤخرة البلدان الرأسمالية الكبيرة وقد خربته الحرب، ثمانون بالمائة من سكانه فلاحون اميون، محاط بحصار عالمي ضربته الامبريالية عليه.. أكان وراء ذلك الانجاز التاريخي الفريد محض (تصورات) ام فكر عبقري خلاق؟!!

ان الاستاذ مسوح لا يختزل فقط افكار لينين العبقرية، بل الاسوأ من ذلك هو انه ينفي كون الثورة الروسية مدرسة للجميع،ليس فقط في هدم القديم البالي بل وفي بناء الجديد ايضا، أي سواء كان في ايجابياتها او سلبياتها. وكان لينين قائد الثورة بحق، سواء الثورة بمعنى الهدم او بمعنى البناء. وقد تعلم من لينين بهذا المعنى او ذاك زعماء من امثال صن يات صن وماوتسي تونغ في الصين وهو شي منه في فيتنام ونهرو في الهند ومسطفى كمال في تركيا وجمال عبد الناصر في مصرو...الخ محاولين قيادة بلدانهم للحاق بركب التقدم على اقصر الطرق رغم اختلاف مذاهبهم الاجتماعية.

لم يترك ماركس وانجلس منهجا لعملية الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية لانهما كان اشتراكيان علميا وليس طوباويين. فلم يضعا سوى المباديء العامة للاشتراكية والشيوعية دون ان يدخلا في التفاصيل. وكذلك فعل لينين إذ استكمل المباديء العامة هذه وعللها في كتابه الدولة والثورة قبيل ثورة اكتوبر بحوالي ثلاثة اشهر. وفي نفس الوقت وضع في بحثه (الكارثة المحدقة وكيف نحاربها) فقط الخطوات الاولى التي يجب اتخاذها لتنظيم الانتاج الاشتراكي:

تأميم البنوك، تأميم السنديكات (الاحتكارات الرأسمالية)، الغاء السر التجاري، ربط المشاريع الرأسمالية في اتحادات اجبارية، ضبط الاستهلاك و..الخ

وقال:- ان هذه الاجراءات بحد ذاتها لا تؤدي الى الاشتراكية بل الى مركزة الانتاج وتستطيع الامبريالية ايضا ان تتخذها.

والشائع اليوم هو ان افضلية الاشتراكية على الرأسمالية تكمن في التخطيط المركزي. ويختزل التناقض بينهما الى:- التخطيط المركزي ام السوق الحرة!! والحال ان لينين اظهر ان التخطيط المركزي بدأته رأسمالية الدولة الاحتكارية للامبريالية الالمانية في الحرب العالمية الاولىوتبعتها ايضا فرنسا وروسيا القيصرية. ولاشك في ان الاشتراكية تمتاز على الرأسمالية في التخطيط المركزي بفضل الملكية الجماعية لوسائل الانتاج. ولكن افضلية الاشتراكية على الرأسمالية ليست هنا بل في صعيد آخر وهو، حسب رأي لينين:-ادراك العامل في الاشتراكية لاول مرة منذ انقسام الناس الى مستثمِرين ومستثمرين، ادراكه انه يعمل لنفسه. ولم يكن هذا محض تصور من تصورات لينين حول بناء الاشتراكية في روسيا بل كان اهم مبدأ لينيني لبناء الاشتراكية أي قطر من اقطار العالم وقد كشفه لينين وطوره بوضعه موضع الممارسة. ومن الاخلال

بهذا المبدأ على وجه التحديد نشأت جذور الازمة التاريخية في النظام الاشتراكي.

ولكي يلمس العامل انه يعمل لنفسه حقا وليس للغير لا يكفي ان يكون المشروع او جميع المشاريع،مؤممًا، لاتكفي جتمعة جميع وسائل الانتاج، لا يكفي ان يكون مدراء المشاريع عمالا ولا يكفي حتى كون السلطة السياسية في الدولة محصورة بيد العمال والفلاحين(دكتاتورية البروليتاريا) بل يجب ان يكون للعامل مصلحة مباشرة في نجاح المشروع اقتصاديا والعكس بالعكس. لا ان تذهب ارباح المشروع الى خزينة الدولة ولا ان تسدد هذه خسائره. وقد صاغ لينين فكرته هذه في ظل السياسة الاقتصادية الجديدة: NEP في اوائل ١٩٢٢ في طروحاته عن نقابات العمال، باسم خوز روشوت وقد ترجمت الى (الحساب الاقتصادي)Economic Calculus او حساب الكلفة. او قاعدة الربح. واصبح وفقها للعامل نصيب في الربح والخسارة تبعا لذلك. وهكذا تحقق اعظم تبدل في تاريخ الانسان من العمل بالاكراه الى العمل للنفس (لينين: كيف تنظم المباراة).ان العمل من اجل النفس هو الذي يولد لدى الجماعة العاملة في المشروع (المجازفة والمنافسة والمبادرة الجريئة) في رأي لينين. ان غياب هذه الصفات بعد ان اهمل الحساب الاقتصادي هو الذي ادى الى الجمود والركود الاقتصادي ثم الى الازمة الخانقة.

طبقت هذه السياسة الاقتصادية في السنوات الاولى فاقترنت مصلحة العمال بمصلحة المشروع وجدواه الاقتصادية وعلى اساس هذه الشركة المادية قامت شراكة بين العمال والدولة في ادارة المشروع وتخطيط الانتاج. ولاول مرة في التاريخ وجدت الديموقراطية الصناعية، الديموقراطية على مستوى الانتاج في ظل الديموقراطية السوفيتية، الديموقراطية على مستوى جماهير العمال والفلاحين. وعندئذ لم يكن العامل يشعر بالغربة عن المشروع بل يلمس لمس اليد انه يعمل لنفسه وان المشروع مشروعه والدولة دولته. وهكذا كان المنهج اللينيني في بناء الاشتراكية.

ولكن كان ما يقض مضاجع ستالين الذي تولى دفة القيادة بعد لينين ليس القلق على بناء الاشتراكية بقدر ما هو الخوف من حرب تشنها الامبريالية على الاتحاد السوفيتي الذي كان حتى عام ١٩٢٨ لا يزال في مؤخرة الدول الصناعية الكبيرة. وقد قال مرة:-ان روسيا المتخلفة هزمت مرة بعد اخرى على ايدي التتار والسويد والبولونيين وغيرهم، فاما ان تلحق بالدول المتقدمة او تهلك. فكان همه الاول تحويل الاتحاد السوفيتي الى دولة صناعية عظمى ان لم يكن اعظم دولة صناعية، ربما اكبر من همه انجاز البناء الاشتراكي، لولا ان المهمتين قد اقترنتا تاريخيا. ولهذا وضعت الخطة الخمسية الاولى (١٩٢٨-١٩٣٢) للتصنيع السريع. ولشحة الموارد المالية وانعدام أي مساعدة خارجية وضع (الحساب الاقتصادي) على الرف وتبعته ايضا الديموقراطية الصناعية على مستوى الادارة والتخطيط لتلحقها فيما بعد الديمقراطية على المستوى السياسي للدولة. وبقيت لفترة الحماسة التي خلقتها الثورة لدى الجماهير لانجاز التصنيع الاشتراكي السريع واللحاق بالدول الصناعية المتقدمة واستكمال اسباب الدفاع عن الوطن. وقد تم ذلك. بيد ان الثمن كان باهضا. فقد زحفت البيروقراطية زحفا حثيثا وتسللت الى مراكز السلطة الاقتصادية والسياسية واستولت على اجهزة الدولة واعادت خلقها على صورتها. وقد تم كل ذلك تلقائيا،لان ديمقراطية لينين السوفيتية لم تكن قد تصلب عودها او ترسخت بعد.وغدا ستالين نفسه الذي كان رأس تلك ورمزا لها، اسيرا لها.

ويروى عن خروشوف، عن احد المقربين الى ستالين انه صرح له في لحظة من وخز الضمير وقد بلغ به الكبر عتيا:-لقد ترك لنا لينين دولة بروليتارية حقا فما كان منا الا ان شلحنا سراويلنا وكشفنا عجزنا لنشخ عليها.

وتحت قيادته اصبح الاتحاد السوفيتي خلال بضع سنوات ثاني اكبر دولة صناعية في العالم واستطاع خلال الحرب العالمية الثانية (١٩٤١-١٩٤٥) ان يصمد بوجه كل الصناعة الحربية في القارة الاوربيةباستثناء الجزر البريطانية.

وحتى نهاية الاربعينات انهمك الشعب السوفيتي في اعادة بناء ما خربته الحرب في بلاده. وبعد ان انجز ذلك اخذ معين الحماسة الثورية الجماهيرية بالنضوب. لقد نضبت ايضا الموارد الطبيعية الغزيرة قليلة الكلفة نسبيا كما استخدمت في المدن احتياطيات اليد العاملة من سكان الريف عن آخرها. و لم يعد التوسع الاقتصادي بالتكنولوجيا الموروثة مجديا وكان لابد من ادخال الثورة العلمية التكنولوجية على اوسع نطاق. ولكن القيادة السوفيتية كانت قد تحجرت بعد ان غابت الديموقراطية على صعيد الدولة والحزب الشيوعي السوفيتي. و جاء سباق التسلح الذي فرضته الولايات المتحدة منذ بداية الستينات والمقاطعة الاقتصادية منذ نهاية الحرب ضغثا على إبالة. فخصص الاتحاد السوفيتي خمسة اثمان طاقته الانتاجية للدفاع عن نفسه وعن حلفائه. والقليل من الموارد لادخال الثورة العلمية التكنولوجية للاغراض السلمية. وتحطمت اول محاولة للاصلاح الاقتصادي في النصف الثاني من الستينات على صخرة البيروقراطية والتحجر وغياب الديموقراطية. وفي السبعينيات بدأت في الاتحاد السوفيتي أزمة الركود الاقتصادي وهبطت وتيرة الزيادة بالنسبة للفرد من السكان الى (٠,١٪)خلال الفترة (١٩٧٥-١٩٨٥).

واليكم الفكرة المحورية حول الازمة في الاتحاد السوفيتي كما تصورها الاقتصادي السوفيتي اتو لاسيس في كتابه القيم "Beyond the Squer" وهو من انصار التجديد الملتزمين بالماركسية اللينينية:

"بما انه من الصعب جدا اقامة علاقة مباشرة بين المصلحة الشخصية والمصلحة العامة لدولة الشعب في المجتمع الاشتراكي فالشيء الذي ينبغي عمله هو اقامة حلقة وسطية على صورة المصلحة الجماعية أي اعطاء الشغيلة نصيبا من ثمرات المشروع العامل حسب مبدأ (الحساب الاقتصادي) أي المشروع الذي يسدد نفقاته من دخله ولا تتحمل الدولة العجز في ميزانيته. ان المدلول السياسي لكون الشغيل سيد بلاده يتعين بمدلول كونه سيد مشروعه، يمارسه في صيانة حياته اليومية خاصة عندما يعتمد مستويات الحياة

المادية رأسا على نتائج عمل كل عامل وعمل الجماعة كلها. وقد استكملت آلية تحقيق هذه الفكرة العامة، بالتفصيل في النصف الاول من العشرينات. وكان اهم واصعب شيء لبناء تلك الآلية هو ايجاد ادوات اقامة الرابطة بين مصالح الجماعة العاملة ومصالح الدولة العامة سواء بسواء مباشرة (عن طريق الخطة الاقتصادية) او التغذية الاسترجاعية Feed back بواسطة السوق. ومن تلك الادوات الاساسية السنديكات او منظومة السنديكات، وهي جمعيات مساهمة طوعية بين المشاريع تربطها بالسوق وقد تم تشكيلها بصورة رئيسة عام ١٩٢٦ بقيادة جرجنسكي.

"ولكن بضع كلمات من ستالين في السنة التالية الغت جميع تلك الادوات تدريجيا وكان ذلك يعني العودة الى الوراء الى عام ١٩١٩ وحتى عام ١٩١٧ وفي اجتماع مع وفد من عمال امريكا في ٩ /ايلول ١٩٢٧ وجه سؤال الى ستالين عن البديل السوفيتي لأمل الربح كحافز لتطوير الانتاج في كنف الرأسمالية. وكان رد ستالين:- ان الربح لم يكن الهدف او الحافز للصناعة السوفيتية وانما حافزها هو ان المعامل والمصانع تعود للشعب جميعا يديرها (ممثلو الطبقة العاملة وان وعي العمال بانهم يعملون لدولتهم هو القوة المحركة للصناعة) وفسر ستالين جذر ذلك الوعي فقال:-(ان معظم رؤساء المشاريع هم من العمال الذين يعينهم المجلس الاقتصادي الاعلى بالاتفاق مع اتحادات العمال(النقابات) وللمشاريع لجانها المعملية ومؤتمراتها الانتاجية.) وكانت القوة المحركة الاخرى بنظر ستالين هي ان مدخولات الصناعة لم تكن تعمل على اثراء الافراد بل لتوسيع الانتاج الصناعي ولتحسين مستويات الطبقة العاملة المادية والثقافية. وكان الشيء الثالث بنظر ستالين هو ان واقع تأميم الصناعة قد يسر تخطيط النشاط الاقتصادي.

واول شيء يفقأ العين في تصريحات ستالين التناقض الغريب عن الواقع وهو ان السياسة الاقتصادية الجديدة NEP التي صاغها لينين وقد شرعت الربح كهدف لنشاط المشروع كانت لا تزال نافذة في حين صرح ستالين ان

الربح لا هو هدف الصناعة ولا هو قوتها المحركة.! والملاحظة الاخرى: هي ان ستالين لم يقل كلمة واحدة عن (الحساب الاقتصادي) باعتباره الحلقة الرئيسة الموصلة بين الحوافز الشخصية والاجتماعية. كما شرحه لينين سنة ١٩٢١ ولم يقل كلمة واحدة عن مصالح المشروع او مصالح جماعته العامل ولم يكن ما عناه هو ان مصلحة الدولة ككل مرتبطة بمصالح العامل الفرد بدون اية حلقات وسطية بمجرد وعي العامل بنصيبه المشترك مع الشعب جميعا في تطوير الاقتصاد الاشتراكي.

ان تفسير ستالين (لمعنى السيادة) اصولها وتكوينها، ينفي في واقع الامر أي دور حقيقي للعامل كسيد لمشروع معين وينفي ايضا كل رقابة اجتماعية على كفاءة نشاط اولئك الذين دعاهم ستالين (ممثلي الطبقة العاملة،رؤوساء المشاريع) دع عنك الهيئات التنفيذية العليا. وكان اهمال حوافز (الحساب الاقتصادي) وضوابطه لابد وان يبطل آلية لا غنى عنها في الاقتصاد، آلية السوق، باعتبارها السوق لفائدة المنتوج ولجودته ولسعره. ومن حيث النتيجة خطى ستالين الى الوراء السائد في ايام شيوعية الحرب وان لم يعترف بذلك وكان لتلك الخطوة الى الوراء عواقب بعيدة الاثر"Beyond the Square,Otto Lacis Progress Poblishers" موسكو ١٩٨٨

هكذا خرق ستالين مباديء لينين لبناء الاشتراكية او هكذا استلب المشروع من عماله وجعل هؤلاء يشعرون بالغربة في مشروع هو ملك طبقتهم من الناحية الشرعية، وكأنهم ايتام في دار ابيهم يقيم عليهم ولي امر بيروقراطي معين من قبل مديرية اموال القاصرين. ولا مناقشة في الامثال. وهكذا لعشرات السنين اغترب العمال عن نظام اقاموه. مدكا مدكا، على حد تعبير الاستاذ مسوح البليغ الدلالة.

ولكن مهلا فكل مؤرخ منصف يعرف ان الانظمة الاشتراكية المنهارة رغم كل اخطائها الفادحة المبينة اعلاه قد قدمت لشعوبها من الخدمات

الاجتماعية ما اصبح مثلا يحتذى، بالنسبة لاغنى البلدان الرأسمالية:-في مجال الاسكان والصحة والتعليم والثقافة والرياضة و...الخ

زار الاديب الانكليزي ايج جي ويلز لينين ووصفه برجل الاحلام الكبيرة في الكرملين حيث تحدث له لينين عن حلمه في تغطية الاتحاد السوفييتي بشبكة من الخطوط الكهربائية، أي تغطية سدس اليابسة على سطح كوكبنا بالكهرباء. واعتبر ويلز الذي تنبأ عن اول رحلة الى القمر، اعتبر امنية لينين مجرد حلم. ولكن هذا الحلم يكاد يتحقق. و لم يكن لينين يحلم فحسب بل كان يعتبر الاحلام الممكنة التحقيق علميا حافزا ماديا للانسانية.

لينين رجل الاحلام، كان رجل عمل ايضا. لقد نذر حياته منذ صباه لقضية البروليتاريا ورسالتها التاريخية وكان لايعرف ينابع قوة هذه الطبقة الفتية وحسب بل نقاط ضعفها ايضا، باعتباره عالما واقعيا.

وفي كتابه (الدولة والثورة) يشرح نفسية شيلوخ المرابي (تاجر البندقية - لشكسبير) وان هذه النفسية ستبقى لدى العمال ايضا حتى في ظل الاشتراكية، ولمدة طويلة، وهي السبب الذاتي لعدم توزيع الخيرات المادية حسب الحاجة بل حسب مقدار العمل وجودته وانه فقط في ظل الشيوعية التي تلي الاشتراكية حيث تتربى اجيال جديدة بروحية العمل الشيوعية وحيث يصبح العمل حاجة روحية ويعمل العامل دون تفكير بالمكافأة وحيث ايضا انتاجية العمل بفضل الثورة العلمية التكنولوجية الجارية الان الى درجة تتدفق فيها الخيرات المادية بحيث تسمح بتوزيعها حسب الحاجة وليس حسب العمل. ومن هنا اهتمام لينين بالحوافز المادية للعمال وبتعبير ادق بالاجور الشخصية المباشرة التي تدخل جيب العامل مباشرة في نهاية كل اسبوع او اسبوعين او كل شهر. ومن هنا ضرورة الحساب الاقتصادي الذي ابتدعه لينين والذي ربط فيه اهتمام العامل او الجماعة العاملة بنجاح المشروع اقتصاديا ارتباطا مباشرا اذ اعطاهم نصيبا في الربح.

كان لينين فيلسوفا وعالما اقتصاديا ومتضلعا بعلم النفس الاجتماعي. وكان ستالين منظما اداريا قديرا ولكنه قليل الصبر. فاستعاض عن الحافز المادي المباشر بالحماسة التي خلقتها الثورة والحرب الوطنية وبالمثل العليا للاشتراكية التي لايمكن ان يعيش الناس عليها وحدها جيلا بعد جيل. ونعتقد ان الانظمة الاشتراكية بالغت الى حد ما في حجم الاجور الجماعية (الخدمات الاجتماعية) على حساب الاجور الشخصية التي تدفع مباشرة. ولذا فان الانتفاضات في اواخر الثمانينيات على الانظمة الاشتراكية قامت بها المراتب الميسورة من السكان سواء كانوا من المثقفين او من العمال.

كان الاشتراكيون يرون ان الاشتراكية واقتصاد السوق او العلاقات البضاعية النقدية ضدان لا يجتمعان. ولكن لينين وجد ان آلية السوق وجدت قبل الرأسمالية وخدمت التشكيلات السابقة للرأسمالية كما انها خدمت الرأسمالية بالطبع ويمكن ان تخدم الاشتراكية ايضا شرط ان تخضع لرقابة الدولة ولا يطلق لها العنان لتعمل كقوة من قوى الطبيعة العمياء. وعلى هذا الاساس استخدمت آلية السوق في السياسة الاقتصادية الجديدة (النيب) منذ اوائل ١٩٢١ بمبادرة لينين كما افسح في المجال لنشاط الرأسمال الخاص في ظل ملكية المجتمع لأهم وسائل الانتاج. وقد الغى ستالين السياسة الاقتصادية الجديدة والاجراءات الاخرى التي ادخلها لينين لبناء الاشتراكية قبل الاوان.

وفي السنوات الاخيرة تذكر الاقتصاديون السوفييت تلك السياسة الاقتصادية اللينينية ولكن بعدخراب البصرة او بصرى.!

وخلال العقود الاخيرة اختفى العاملون الفرديون من جداول الاحصاءات والحال تضاعف الانتاج الاجتماعي بضع مرات. وكما قال ماركس تنمو مع نمو الانتاج حاجات الناس ايضا. وقد استحال على قطاعي الدولة والتعاونيات لاسباب موضوعية مختلفة ان يلبيا الحاجات النامية فنشأت جيوب ثابتة من الطلب عير الملبى في التجارة والانتاج الصناعي والزراعي

والبناء والنقل وتصليح الادوات المنزلية الجديدة والخدمات وفي الحقيقة نشأ ما سمي (باقتصاد الظل) أي الاقتصاد غير الشرعي الذي لم تجزه الدولة ولكن الحاجة ام الاختراع. فقد انشأه المغامرون لتلبية حاجات الناس الجديدة التي عجزت الدولة والتعاونيات عن تلبيتها. بيد ان الدولة لم تعترف بهذا القطاع الذي نشأ عفويا بسبب العقيدة الجامدة التي تظن ان حصر كل شيء بيد الدولة يعني تجاوز الاشتراكية وبناء الشيوعية!!ولو اعترفت الدولة بشرعية هذا القطاع واخضعته لرقابتها لكان خادما ايجابيا للاشتراكية، في حين ان عدم شرعيته في ظل البيروقراطية وغياب الديموقراطية جعل منه مصدرا للافساد وقد نشر فعلا الفساد في اجهزة الدولة والحزب ايضا. وعلى سبيل المثال تورط مسؤول ازبكستان بان جعل اجهزة الدولة ادوات للاستثمار وجنى ارباح لآلاف الملايين وتمكن من شراء وزير داخلية الاتحاد السوفيتي بالمال لستر استثماراته.

ومنذ الخمسينات اخذت وتائر النمو بالهبوط و لم يعد من سبيل لتوسيع النمو سوى ادخال منجزات الثورة العلمية التكنولوجية.. ولكن ادخال هذه المنجزات على صعيد الانتاج يفتقر الى ما سماه لينين (المجازفة والمبادرة والمبادرة الجريئة) وفشلت محاولة كوسيغين في الاصلاح الاقتصادي في اواسط الستينات لغياب الديموقراطيةوادى ذلك الى الركود الاقتصادي منذ اواسط السبعينات.والان يعيش ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتي وطن الاشتراكية الاول في ازمة اقتصادية رهيبة حيث هبط الانتاج الى (٦٠٪)مما كان عليه عام ١٩٩٠ فكيف كان ذلك؟ هل الملكية الخاصة لوسائل الانتاج هي الشرط الامثل للتقدم العلمي التكنولوجي وارتفاع وتائر النمو؟ هل الديموقراطية المطلقة هي الشرط الحاسم؟

لاشك في ان الملكية الاجتماعية هي الشرط الامثل للتقدم العلمي التكنولوجي ولارتفاع وتائر النمو ولكنها يجب ان تقترن بضمان شعور العامل بانه يعمل لنفسه، بان يكون له نصيب في الربح وصوت في الادارة

والتخطيط أي ان تكون هناك ديموقراطية على صعيد الانتاج وعلى الصعيد الجماهيري المحلي وعلى صعيد الدولة. وهذا هو الشعور الذي اختفى في البلدان الاشتراكية مع الديموقراطية وادى الى الكارثة التي نشهدها.

ويفرد الاستاذ مسوح من نشاط لينين الفكري كتابه (الامبريالية على مراحل الرأسمالية) اذ يعتبره "ابداعا واضافة حقيقية الى الافكار الماركسية في بدايات هذا القرن. ولكن التطور العاصف الذي حدث في بنية الامبريالية واساليبها ولاسيما بعد الثورة العلمية التكنولوجية، قد جعل الكثير من الافكار الواردة في الكتاب...قديماً ويحتاج الى التدقيق...والنفي في ضوء الواقع المعاصر..

والحق اقول لك ياصديقي ان الكتب السماوية وحدها هي التي لاتحتاج الى التدقيق والنفي.. وحتى (رأس المال) لماركس يحتاج الى التدقيق والنفي بالمدلول الدياليكتيكي للنفي لا بمدلولك انت!

قال لينين في الامبريالية، رأسمالية احتكارية، اعلى مراحل الرأسمالية واخرها، بشيرة الثورة الاشتراكية، المرحلة الرأسمالية التي اقيمت فيها هيمنة الاحتكارات ورأس المال واحرز تصدير الرساميل اهمية بالغة وتم فيها تقسيم العالم بين الاحتكارات وتقسيم اليابسة بين الدول الكبرى..الامبريالية رأسمالية منحطة طفيلية ومحتضرة وهي تعطي طابعا خاصا لعمل جميع القوانين الاقتصادية للرأسمالية في هذه المرحلة، وبضمن ذلك قانون تفاوت وتائر التطور الاقتصادي والسياسي بين البلدان الرأسمالية. وهذ التفاوت يتفاقم بحدة ويتخذ طابعا متعارضا متشنجا. وهو في حالة الاقتسام التام للعالم بين الدول الامبريالية يؤدي الى الحروب العالمية. الاحتكار يزيد باطراد من جتمعة الانتاج وبالتالي يفاقم حدة التناحر الطبقي وبذلك يوجد المستلزمات الموضوعية الضرورية لانتصار الاشتراكية.

ان ما اثار الشكوك في الازمة الراهنة حول كتاب لينين عن الامبريالية هو كيف استطاعت هذه الرأسمالية المحتضرة ان تسير قدما في الثورة العلمية التكنولوجية في حين تخلفت البلدان الاشتراكية في هذا الميدان الحاسم للمباراة بين النظامين؟!

من الجدير بالانتباه هو ان لينين اكتشف في الامبريالية ببصيرته النفاذة وعلى ضوء الدياليكتيك الماركسي اتجاهين متعاكسين وهما:-الاتجاه الرجعي السياسي:حروب امبريالية، دكتاتوريات فاشية و...الخ واتجاه تقدمي اقتصادي: المزيد من التقدم المادي والتكنيكي. فيقول:

"المنافسة تتحول الى احتكار،والنتيجة تقدم هائل في جتمعة الانتاج وبخاصة جتمعة الاختراعات والتحسينات التكنيكية.. انها الرأسمالية في مرحلتها الامبريالية تؤدي رأسا الى اوسع جتمعة للانتاج.. انها لو جاز التعبير تجر الرأسماليين رغم ارائهم ووعيهم الى نظام اجتماعي جديد بنوع ما، نظام انتقالي من المنافسة الحرة التامة الى الجتمعة التامة" (الترجمة عن الطبعة الانكليزية- ز.خ)

ويشدد لينين على الدوام على الفارق بين المحتوى المادي التكنيكي للجتمعة الرأسمالية وبين طبيعتها الاجتماعية. فهي تقدمية من حيث الشروط المادية والتقنية لانها تسرع تطور القوى المنتجة وتوفر الظروف الضرورية لتطوير اخر تكنولوجيا واستخدامها في الانتاج الواسع النطاق، وهي رجعية من حيث المقاييس الاجتماعية لان كما يقول لينين:"جل الربح من نصيب (عباقرة) التلاعب المالي ويكمن في اساس هذه الالاعيب والاحتيالات جتمعة الانتاج. ولكن تقدم البشرية الهائل الذي انجز هذه الجتمعة يذهب لفائدة المضاربين.."(لينين-الامبريالية)

وبعد الحرب العالمية الثانية جرت مناقشة اقتصادية في الاتحاد السوفيتي تناولت فيما تناولته عما إذا كانت مقولة لينين لا تزال صحيحة بان الرأسمالية

في مرحلة لا تزال قادرة على النمو السريع وهي في حالة الازمة العامة؟ وحتى ستالين رد على المناقشة بالايجاب. أي ان الرأسمالية لا تزال قادرة على النمو السريع رغم ازمتها العامة. ومع ذلك فقد تلكأت الاشتراكية في ادخال الثورة العلمية التكنولوجية على نطاق واسع في حين استطاعت الرأسمالية عن طريق هذه الثورة ان تثبت نفسها نسبيا رغم ازمتها العامة بعد ان اشرفت على الموت في حربين عالميتين وفي (الكساد الكبير) في الثلاثينات(١٩٢٩-١٩٣٣)

وقد يقال ان تشخيص لينين للامبريالية بانها رأسمالية محتضرة غير صائب لانهالاتزال على قيد الحياة بل في حالة فيض الانتاج او حتى الازدهار. والحال يعيش الاقتصاد الاشتراكي في ازمة خانقة!!

ان النبوءات الاجتماعية تختلف عن النبوءات الفلكية. فبامكان تحديد مواعيد الكسوف والخسوف مسبقا الى حد الجزء من الثانية دون ان يخطئوا لان الظواهر الطبيعية تتحقق تلقائيا. اما احتضار نظام اجتماعي فلن يؤدي الى موته تلقائيا ما لم تكن هناك قوى قادرة على ذلك وتعمد الى الاجهاز عليه، يعني الشعب العامل. ومن بين الاسباب التي اطالت عمر الرأسمالية يمكن ان نعدد الاخطاء التي ارتكبت في بناء الاشتراكية.

وفي الاعوام(١٨٤٨-١٨٥٠) نشبت سلسلة من الثورات في اوربا الغربية على اثر الازمة الاقتصادية الرأسمالية الدورية. وقد فشلت تلك الثورات. ويتنبأ ماركس وانجلس بسلسلة جديدة من الثورات سوف تعقب الازمة الدورية التالية. وجاءت الازمة التالية و لم تعقبها الثورات. لماذا؟ لان القوى الحاكمة المعادية للثورة والتي قمعت الثورة (نفذت وصيتها) على حد تعبير ماركس وانجلس، لا اذكر ايهما القائل، أي انهم نفذوا الاصلاحات التي قامت الثورة من اجلها ولكن ببطء وبالتدريج، وبمعاناة طويلة للجماهير وعذاب. وفي الاربعين سنة الاخيرة ادخلت مثل هذه الاصلاحات او التحسينات على المجتمع البرجوازي. ولا ازال اذكر حديثا جرى بين ايج جي

ويلز وستالين في اوائل الثلاثينات وقد نشر الحديث في جريدة لندنية وفي كراس على حدة. وكان ويلز اشتراكيا اصلاحيا من (الفابيين) وقد قال لستالين:- عندنا في بريطانيا وامريكا يمكن ادخال الاشتراكية ليس عن طريق الثورة كما جرى عندكم بل عن طريق الاصلاح.

لم يكن في هذا الكلام ما يفاجيء احد بل كانت المفاجأة في رد ستالين:- نعم ممكن ولكن خلال مائة عام!

لقد عرف ستالين بالتشدد اليساري وليس بالميول اليمينية ومع ذلك كان رده ايجابيا. وها قد مرت ستون سنة ونيف و لم تصبح بعد بريطانيا اشتراكية بل ابتعدت عنها اكثر خلال حكم تاتچر وميجر..ناهيك عن امريكا.

ان افدح كارثة في (الزلزال) الاخير هي تلك التي انزلت في ساحة الحزب الشيوعي السوفيتي الذي كان اعظم قوة سياسية في العالم سحابة القرن العشرين ومن بين اكثر من عشر ملايين عضو في جمهورية روسيا الاتحادية لم يبق سوى نصف مليون هم اللب الشيوعي السليم الملتف حول راية الحزب. وتتحمل القيادة بالطبع مسؤولية استثنائية عن هذا المصير المأسوي إذ لم يفقد الحزب زمام السلطة السياسية في الدولة فقط بل فقد ايضا ثقة اكثرية الشعب. ولكن حصر المسؤولية بآخر قيادة سياسية للحزب وحتى بآخر لجنة مركزية بكل هيئتها من السذاجة. فلعشرات السنين الاخيرة اندمج الحزب بالدولة حتى غدا جهازا خاصا من اجهزتها. وكثرة من اعضائه من موظفي الدولة وان تكن الاكثرية من العمال والفلاحين. وكان الموظفون ينتمون للحزب للحصول على الامتيازات اما الاعباء فتلقى على العمال. إذ كان عليهم التبرع بساعات عمل اضافية مجانية لخدمة هذه القضية او تلك. وقد دب الفساد في الجهاز الحزبي كما دب في اجهزة الدولة.

وعلى اثر الانقلابات التي جرت في نهاية الثمانينات وبداية التسعينات استولت على الحكم في اغلب البلدان الاشتراكية حكومات معادية للشيوعية وللاشتراكية. وشرعت تصفي الارث الاشتراكي ومع ذلك فالكل يعترف ان طريق التحول الرأسمالي ليس محسوما بعد.

وتشير استطلاعات الرأي ان خيبة الامل بالتغيرات التي جرت تعم اكثرية السكان في بلدان اوربا الشرقية. لقد جاءت تلك الحكومات المعادية للاشتراكية الى سدة الحكم تحت شعارات الديموقراطية وحقوق الانسان ودولة القانون وضد الدكتاتورية والبيروقراطية و..الخ. وقد فرضت الجماهير الديموقراطية فعلا بالممارسة وقد اثبتت الديموقراطية انها سلاح ذو حدين. فكما انها استخدمت ضد الاشتراكية او بالاحرى ضد ما علق بها من سلبيات فانها تقف الان عائقا بوجه من يحاول تصفية منجزات الاشتراكية التي تتمسك بها الجماهير الشعبية وليس من السهل اجراء التحولات الرأسمالية من دون انتزاع مكاسب الاشتراكية ومنجزاتها.

ومن المناسب بهذا الصدد ان نتذكر كلمات انجلس في رسالته الى الروسية فيشينسكايا،بصدد ضرورة التجديد للتغلب على عواقب الكارثة:

"ان امة عظيمة، مثل امتكم تتغلب على كل ازمة، وليس ثمة مصيبة تاريخية كبرى لم يعوضها تقدم تاريخي ما، شرط ان يتغير نمط العمل ليتحقق المكتوب" (انجلس)

اما نحن فلكي نكون ماركسيين يجب ان ننطلق من مفهوم ماركس العلمي للعالم ولا سيما فلسفته. وان لانفصل منهجه عن نظريته بل ان نتمسك بمبدأ الوحدة العضوية بين الدياليكتيك والمنطق ونظرية المعرفة وعلى هذا الاساس الراسخ يمكننا ان نعيد تقييم كل شيء على ارض التجربة الاخيرة، ليس تجربة بلد واحد بمفرده بل تجربة جميع البلدان الشرق والغرب. فالاشتراكية بجميع مشاريعها تمر بازمةشاملة وتجابه هجمة عامة من الرأسمالية.

وتعطينا اللينينية كنزا من الخبرة لا يقدر بثمن في مجابهة ازمة كهذه ولاسيما بعدفشل ثورة (١٩٠٥-١٩٠٧) الروسية، يعني نضال لينين ضد الماخية في الفلسفة المثالية الذاتية والتصفوية والانسحابية السياسية.

ان بحث الاستاذ مسوح يزهدنا بكنوز النظرية والايديولوجيا باسم محاربة الجمود ويرى في تجربة الشيوعيين الروس مجرد (تراث للاطلاع) وليس للدراسة واستخلاص النتائج والاسترشاد بها. فنفقد بذلك الخبرة التي هي حصيلة تجربة بذلت اجيال من الثوريين تضحيات رهيبة في سبيل الحصول عليها ويفقدنا ذاكرتنا التاريخية.

ان الخطر الرئيس الذي يهدد الماركسية الان هو خطر تصفيتها ايديولوجيا ونظريا وبالتالي سياسيا وتنظيميا. اما الجمود العقائدي او رفض التجديد فيضطلع بدور مساير للخطر التصفوي.والحال ان مصير الماركسية اللينينية كايديولوجيا ونظرية وحركة غدا معلقا على تجديدها لا بمعنى نفيها نفيا عدميا (نهليستيا) ولا بمعنى الالتزام بالمنهج دون النظرية والايديولوجيا بل بمعنى دراسة تجربتها دراسة تمحيصية انتقادية واستخلاص الاستنتاجات الضرورية منها وتشخيص ما يعد باليا من نظرياتها واستنتاجات مؤسسيها، قد خلفه الواقع المتطور وراءه، وعلى اساس النظرية الماركسية اللنينية ومنهجها ومنطقها والتجربة التاريخية لجميع البلدان صياغة نظريات وبرامج جديدة لحركتنا، لكل حزب من احزابها. وهذه مهمة تاريخية عالمية فوق طاقة أي حزب بمفرده. ونقطة الانطلاق تظافر جهود جميع الشيوعيين الملتزمين بالماركسية اللينينية بهذه المهمة الصعبة والجديرة بان يكرسوا حياتهم في سبيل تحقيقها.

لقد تعود الناس على اعتبار نجاح كل تجربة او فشلها هو المعيار الوحيد لصحة النظرية التي قامت التجربة على اساسها او لبطلان تلك النظرية. ومن هنا المثل السائر من جرب المجرب حلت به الندامة! ولكن حتى النظرية العلمية

يمكن ان تصاب تجربتها بالفشل في التطبيق، اذا كانت الممارسة او طريقة العمل خاطئة او اذا كانت النظرية نفسها قد تخلفت عن التطور وتركتها الحياة وراءها او انها غير ملائمة للظرف المعني او اذا اجتمع اكثر من سبب من هذه الاسباب كما تقع الاخطاء الفادحة ايضا لا بسبب النظرية بل جراء اهمالها والوقوع في التجربوية Empiricism وهي نقيض النظرية. فالتمحيص والنقد يجب ان يتناول كل شيء بعدكل كارثة تاريخية ويجب الا يرحم احدا. والا ضاعت التجربة الغالية على الانسانية وذهبت التضحيات الرهيبة سدى. وقال الحكماء:-ان الهزيمة افضل معلم للمهزومين..

ان مدة سبعين سنة ليست كبيرة بالنسبة لتاريخ المجتمع الانساني، فان التشكيلة الشيوعية البدائية استمرت عشرات الالوف من السنين وتشكيلة الرق عدة الاف والاقطاعية ألف ولا تزال بقاياها منتشرة في جميع القارات والرأسمالية بدأت منذ خمسمائة عام و لم تتكامل بعد في معظم البلدان. بيد ان عجلة التطور تدور الان من ناحية معينة، من ناحية القوى المنتجة بسرعة خارقة بفضل الثورة العلمية التكنولوجية وهي تحقق الاساس المادي (فيض الانتاج) لا للاشتراكية وحسب بل للشيوعية ايضا أي لكل حسب حاجته.!

الفصل الثالث

هل" مصيبة الماركسين العرب اكبر"؟

جاء في الفصل الاول من بحث الاستاذ مسوح:-"وكانت المصيبة اكبر عند الماركسيين العرب.لان المسألة بالنسبة الينا ليست مسألة مسافة زمنية بين النصوص الماركسية الكلاسيكية وعصرنا الحاضر فحسب، بل هي ايضا مسألة بنية اجتماعية مختلفة. فالنصوص الماركسية جاءت حصيلة لدراسة واقع اوربي كان منذ ذلك الحين مختلفا اختلافا كبيرا عن الواقع العربي. ومع ذلك فان معظم الماركسيين العرب -إن لم نقل كلهم- نظروا وينظرون الى الماركسية اللينينية كنظرية، اي يعمدون الى تطبيقها على واقع المجتمع العربي المعاصر، مما ادى الى مشكلات اساسية في التشخيص والاستنتاج والنهج. ونذكر على سبيل المثال: القول بالدور القيادي او (الطليعي) للطبقة العاملة في المجتمع غير الصناعي والقول بتجاوز المرحلة الرأسمالية في مجتمع لم يتخلص بعد من بقايا العلاقات الاقطاعية. ووضع مهمات اشتراكية في مجتمع لم تنجز فيه مهمات التحرر الوطني الديموقراطي. وعدم ادراك العامل الديني (والروحي بعامة) في التطور الاجتماعي واغفال دور العامل القومي والقفز فوق مهمة الوحدة القومية وغير ذلك..

ويذهب الاستاذ مسوح ابعد من ذلك فيقول:-"ولو تم استيعاب المنهج الماركسي والافادة منه في دراسة الواقع العربي لوجدنا ان الكثير من النصوص التي تضمنتها كتب الكلاسيكين لا حاجة بنا اليها، ان لم يكن بعضها ضارا بالنسبة الينا"

هذا الجزء من بحث الاستاذ مسوح جاء كاوضح جزء فيه والحق يقال مما يستحق مؤلفه الشكر عليه وان لم يشخص رأسا ماهي تلك النصوص الضارة بالعرب في كتب الكلاسيكين كما يقال ولعلها نلك الامثلة الواردة في المقتطف اعلاه كالقول "بتجاوز المرحلة الرأسمالية في مجتمع لم يتخلص بعد من بقايا العلاقات الاقطاعية" فهو ضد هذا التجاوز ويعتبره من "المشكلات الاساسية في التشخيص والاستنتاج والنهج" وينسب هذا الخطأ الى نظر الماركسيين العرب الى الماركسية اللينينية كنظرية، أي يعمدون إلىتطبيقها على واقع المجتمع العربي المعاصر وهذه النظرة عند الاستاذ مسوح هي ام الكبائر من بدء بحثه حتى آخره. وبما ان بعض الاحزاب الشيوعية العربية قد تبنت فعلا مثل هذه النصوص فالضرر قد وقع فعلا في نظره. وكل ما نتمناه هو ان ينفي مثل هذا الاستنتاج والا فمن حقنا ان نجزم بانه يرى من المحتوم على البلاد العربية ان تجتاز نفس طريق التطور الذي تجتازه اوربا الغربية خلال الخمسمائة سنة الاخيرة. ولكن ما ينتقد عليه الماركسيين العرب يصح بالاحرى عليه هو بالذات وعلى القائلين بان المرحلة الرأسمالية من التطور محتومة على كافة الشعوب. فالنظرية الماركسية اللينينية تنفي مثل هذه الحتمية. وسيرورة التاريخ العالمي لاتدل على ان جميع البلدان قد مرت بجميع التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية التناحرية على التوالي من الرق الى الاقطاع الى الرأسمالية وصولا الى الاشتراكية بل ان العديد من البلدان قد تجاوز هذه التشكيلة او تلك دون استثناء الرأسمالية.والارتداد الوقتي عن الاشتراكية لا ينفي هذه الحقيقة. فالبلدان التي كانت متطورة رأسماليا من قبل كهنغارية وجيكوسلوفاكيا قد اخذت تتراجع عن الاشتراكية باسرع وابعد من غيرها التي تعاني من التخلف في ميدان التطور الرأسمالي.. فأي "منهج مادي جدلي تاريخي"يلزم الاستاذ مسوح ان يقول بحتمية المرور بالمرحلة الرأسمالية بالنسبة للبلدان العربية؟!ان هذه المسألة بالذات هي بيت القصيد في كل الجدل الذي يثيره البحث.

والان هل مرحلة التطور الرأسمالي حتى اخرها محتومة على البلاد العربية وغيرها من البلدان المختلفة عن الغرب ام ان هذه البلاد يمكنها الخروج عنها وتجاوزها في أي لحظة من لحظاتها؟

تلكم هي المسألة!

قد يعتبر البعض هذا النقاش بيزنطي طالما دخلت كل البلدان المتخلفة في مرحلة التطور الرأسمالي وقطعت اشواطا متفاوتة على الرغم من العلاقات الاقطاعية وحتى ما قبلها. ولكن الاستاذ مسوح وكثير من المنظرين الجدد يجدون في استكمال التطور الرأسمالي بكل مراحله هو الطريق الوحيد لبلوغ الاشتراكية. ومن هنا يكتسب الموضوع اهميته في هذه المرحلة الصعبة التي تجتازها شعوب البلدان المتخلفة والازمة التي تعانيها الحركة الشيوعية العالمية.

في حياة ماركس نسب اليه الشعبوي الروسي ميخائيلوفسكي نظرية تاريخية فلسفية تقول بحتمية مرور جميع البلدان بمرحلة التطور الرأسمالي..فرفض ماركس هذه النظرية رفضا قاطعا برسالة بعث بها الى المجلة النارودنية الروسية (اوتيتجنيتسكايا زابيسكي) وقد جاء فيها:

..ولكن هذا قليل جدا جدا لناقدي، فهو بحاجة من كل بد لتحويل لمحتي التاريخية عن نشوء الرأسمالية في اوربا الغربية الى نظرية تاريخية فلسفية عن السبيل العام المحكوم على جميع الشعوب، بصورة مشؤومة، بالسير عليه، ايا كانت الظروف التاريخية التي تكون فيها، لكي تصل في اخر المطاف الى تلك التشكيلة الاقتصادية التي تؤمن، مع ازدهار قوى العمل المنتجة ازدهارا عظيما جدا، وتطور الانسان اكمل التطور. ولكني ارجو منه المعذرة، فمن شأن ذلك ان يكون في آن واحد مفرطا في الثناء علي ومفرطا بالخزي لي"

ان ماركس في هذا النص ينفي وجود قانون تاريخي عام يحتم على جميع الشعوب المرور بالمرحلة الرأسمالية من التطور في طريقها الى المجتمع الشيوعي. الذي "يطور الانسان اكمل التطور

وقد سبق لي في مقال بعنوان (طابع المرحلة الوطنية الديموقراطية الراهنة) نشر في (الثقافة الجديدة) العدد ٢٢٨ كانون الاول ١٩٩٠ ان تطرقت الى موضوعة (التطور اللارأسمالي) واستشهدت برسالة لماركس واقتطفت منها قوله:-"لقد توصلت الى الاستنتاج التالي:- إذا كانت روسيا ستستمر في السير على الطريق الذي انتهجته منذ عام ١٨٦١ (يشير الى عام الغاء القنانة في روسياوانتهاجها طريق التطور الرأسمالي) فسوف تفوت افضل فرصة قدمها التاريخ في وقت ما الى شعب من الشعوب وستعاني من كافة مصائب النظام الرأسمالي المشؤومة" (اغافونوف- الماركسية اللينينية وطريق التطور اللارأسمالي-دار التقدم موسكو ١٩٨٢)

وبعد ذلك باربع سنوات -اذار/١٨٨١ كتب ماركس المسودة الاولى لرده على رسالة الثورية الروسية فيرا زاسوليتش، قال فيها:-لان المشاعة الريفية التي لاتزال قائمة على الصعيد الوطني في روسيا تستطيع بفضل اجتماع استثنائي من الظروف، ان تتحرر تدريجيا من سماتها البدائية، وان تتطور مباشرة بوصفها عنصر انتاج اجتماعي على الصعيد الوطني. وبما انها معاصرة للانتاج الرأسمالي،وبفضل هذا على وجه الضبط يمكنها ان تستوعب منجزاتها الايجابية دون المرور عبر جميع تطوراته الرهيبة. ان روسيا لا تعيش في عزلة عن العالم المعاصر، وهي مع ذلك، ليست مثل الهند الشرقية غنيمة للفاتح الاجنبي"(ماركس -انجلس في ثلاث مجلدات -م٣ ج١-ص ١٧٧)

وفي الصفحة (١٨١) من نفس المصدر يقول ماركس عن مستقبل المشاعة:-"ان شكلها التأسيسي يجيز واحد من امرين: اما ان يتغلب عنصر الملكية الخاصة الكامن فيها على العنصر الجماعي واما ان يتغلب هذا الاخير على الاول. كل شيء رهن بالبيئة التاريخية التي توجد فيها المشاعة الزراعية Apriori (بصرف النظر عن التجربة) يمكن هذا المآل او ذاك. ولكن الجلي انه ينبغي لكل منهما وجود بيئة تاريخية مختلفة تماما.

فوفقا للنظرية الماركسية، التطور الرأسمالي ام اللارأسمالي يتوقف على الظروف التاريخية، البيئة التاريخية. وقد جرت الظروف التاريخية خلافا لما كان يتمناه ماركس فالدولة الروسية انحازت ضد المشاعية الفلاحية وذاقت روسيا كأس الرأسمالية الامبريالية المرة حتى الثمالة أي بما فيها حروبها الامبريالية وبلغت آخر مراحلها:رأسمالية الدولة الاحتكارية واضطلعت باول ثورة ضد الرأسمالية واقامت اول دولة للعمال والفلاحين، حققت حلم ماركس باقامة المزارع الجماعية الكبيرة الخالية من النير الاقطاعي والرأسمالي ايضا... ولكن عقابا على اخطاء فادحة ارتكبت بحق مباديء بناء الاشتراكية تتعرض المزارع الجماعية لتحدي الرأسمالية من جديد ويتوقف مصيرها التاريخي من جديد على ارادة جماهير الفلاحين وحلفائهم العمال..فإما وإما..

ومرت اربعون سنة على رسالة ماركس هذه وانعقد المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية في موسكو وكانت احدى النقاط في جدول العمل:هل المرحلة الرأسمالية من التطور محتومة على المستعمرات والبلدان التابعة؟ وكان الرد: نفيا، أي انها ليست محتومة.

وقد صاغ لينين بوصفه مقرر اللجنة المختصة بهذه البلدان واضافة الى ذلك:-"انما يتوجب كذلك على الاممية الشيوعية ان تقر وان تثبت نظريا بمساعدة البروليتارية في البلدان المتقدمة يمكن للبلدان المتاخرة ان تنتقل الى النظام السوفيتي والى الشيوعية عبر درجات معينة من التطور متجنبة مرحلة التطور الرأسمالي" (لينين المختارات-م/١٠-ص ٩٦)

سوف يتبرم الاستاذ مسوح من كثرة هذه النصوص ويقول:-شبعنا من النصوص..كفانا نصوصا..!اين المنهج المادي الجدلي التاريخي فهو منقذنا..!

ولكن ما حيلتي انا إذا كان كل شيء مدون من اللاهوت الى الناسوت، من النظرية الى "المنهج المادي الجدلي التاريخي بعينه..!ومع ذلك لندع مؤقتا النصوص والنظريات لننتقل الى الواقع:

هل نحن الماركسيين العرب فرضنا النصوص الماركسية اللينينية على البلاد العربية بصدد عدم حتمية المرحلة الرأسمالية من التطور لتؤدي الى مشكلات اساسية في التشخيص والاستنتاج والنهج..؟

كلا..! لقد سبقنا الى ذلك المغفور له جمال عبد الناصر. فقبل ثلاثين سنة ونيف اعلن تأميم بنك مصر مع كثرة من مشاريع الرأسمال الوطني المصري الخاص والحق اقول:اننا نحن الماركسيين في العراق بوغتنا.. ما عسانا نقول للناس؟ جمال عبد الناصر الذي شهرنا به باعتباره عميلا لابو رجيلة المليونير وعبود باشا رئيس بنك مصر، هاهو يؤمم اموالهما بجرة قلم..!

وحتى المنظرين السوفييت فوجئوا..وعندئذ فقط بدأ البحث عن النصوص وجرى تتبع وصيّة لينين للاممية الشيوعية بان تقر وتثبت نظريا انه بامكان البلدان المتخلفة تجنب المرحلة الرأسمالية، مؤكدا مقولة ماركس ان طريق التطور الرأسمالي الذي سارت عليه اوربا الغربية ليس محتوما على بلدان الشرق..وبقيت وصيته على الرف حتى المؤتمر السادس للاممية الشيوعية (١٩٢٨) عندما عالجها السكرتير الفنلندي للاممية:كوسينين، واختار لهذه القضية اسما مختبريا مؤقتا كما يفعل علماء الطبيعة اذ سماها (طريق التطور اللارأسمالي)،لتنام مرة اخرى في الارشيف. ومع انني اقرأ ادبا شيوعيا منذ ستين سنة ونيف فلم اسمع بطريق التطور اللارأسمالي إلا بعد الضجة التي اثارتها تأميمات عبد الناصر. وقد كانت برامج احزابنا خلوا منها ومن أي مطلب يتجاوز العلاقات الراسمالية. كنا مثل الاستاذ مسوح الان نؤمن بالنقاوة البرجوازية للثورة الديموقراطية ونقاوة كل ثورة اجتماعية على حدة، وكل مرحلة على‌حدة، وكل ظاهرة على حدة. وبعدم التداخل بين الثورات والمراحل والظواهر. في حين وكما يؤكد لينين:_"ان الحكم الاساس في الدياليكتيك الماركسي يتلخص في كون الحدود في الطبيعة والمجتمع هي اصطلاحية ومتحركة"

ومن المفارقات التاريخية ان فهد مؤسس الحزب الشيوعي العراقي كان يدافع عن الرأسمال الوطني الصناعي ويعارض احتكار الدولة لصناعة التبغ خلافا للجادرجي..!

لم يكن نظام عبد الناصر اشتراكيا بل متعدد الانماط وقد استعار من النظام الاشتراكي التأميم والتخطيط المركزي وبعض الاصلاحات الاخرى. كأن يكون للعمال نصيب من ارباح المشروع كما فعل لينين في السياسة الاقتصادية الجديدة. وكان همه الرئيس ان يجعل مصر دولة قوية ذات نفوذ في العالم العربي وافريقيا. ولذا كان التصنيع السريع همه الاول فافسح في المجال للرأسمال الخاص وقدم له كل المساعدات التي كان بمقدور الدولة المصرية، ليعجل في تصنيع مصر.. ولكن الرأسمال الخاص خيب امله وحمله على التأميم لتحقيق التصنيع السريع على يد قطاع الدولة، مقتديا بتجربة الاتحاد السوفيتي. وحول الاقتصاد المصري الى اقتصاد متعدد الانماط واطلق عليه (الاشتراكية العربية)

ولكن عبد الناصر كان سياسيا قليل الصبر وطموحاته اكبر من امكانياته بما لا يقاس.. وكان مثل البطل الاغريقي آخيل احد قدميه من طين. إذ لم يكن يؤمن بالديموقراطية ولا بقدرة الشعب المصري على ان يتولى زمام امره بيده. وكان يلجأ الى الشعب فقط لينقذه من داهية.. وكانت هذه المواصفات مشتركة بين جميع اولئك الذين اطلقنا عليهم اسم (الديموقراطيين الثوريين) من جمال عبد الناصر الى كل من سار على دربه ان قليلا او كثير. ومع ذلك فقد تحالفت الاحزاب الشيوعية في البلاد العربية مع اولئك الدكتاتوريين وسارت عمليا تحت قيادتهم السياسية بما فيها الاحزاب التي نصت برامجها على ضرورة قيادة الطبقة العاملة للثورة الوطنية الديموقراطية كشرط ضروري لانجازها وان لم تخلو احزابنا من معارضين لتلك السياسة.

ان اشتراكية عبد الناصر وان لم تكن اشتراكية ماركسية فهي خطوة الى امام، نحو الاشتراكية، وهي شبيهة بالخطوات التي حددها لينين في

كراسه: (الكارثة المحدقة وكيف نحاربها) قبيل ثورة اكتوبر بثلاثة اشهر وقال عنها:"انها وان لم تكن اشتراكية بعد فلم تعد رأسمالية، بل خطوات نحو الاشتراكية..

بيد ان الاستاذ مسوح لا يعترف بمثل هذا التداخل بين التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية ولا سيما بين الرأسمالية والاشتراكية فهو مع التقاطع:إما وإما..إما اسود او ابيض..اما رأسمالية او اشتراكية. والحال نحن نعيش في مرحلة رأسمالية الدولة الاحتكارية الامبريالية وفي عالم تتعايش فيه نماذج من شتى التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية ولو ان البلدان التي انتصرت فيها الثورة الاشتراكية لم تتسرع في الغاء الانماط ما قبل الاشتراكية كليا لما حلت بها الكارثة التي نشاهدها.

وقد كشفت الازمة الراهنة التي اصابت الاشتراكية الفعلية ان ضربا من تعدد الانماط هو علاج فعال لازمتها.. باعطاء الرأسمال الخاص دورا تكميليا ولا سيما في الخدمات. و لم تكن البلدان الاشتراكية بلدانا متخلفة كالبلاد العربية بل بلدانا صناعية متطورة.وكما قال ماركس تنمو مع الانتاج الحاجات ايضا..و لم تلتفت الدولة الاشتراكية ولاسيما الحزب الى هذه الناحية من نظرية ماركس. ولما كانت الحاجة أمّ الاختراع فقد اخترع المضاربون والمغامرون من وراء ظهر الدولة ما يعرف:-(اقتصاد الظل) اي الاقتصاد غير الشرعي لاشباع بعض الحاجيات المتنامية التي لم تلتفت اليها الدولة او لم يكن بمقدورها الاهتمام بها. وبدلا من ان تعترف الدولة بشرعيته وتضعه تحت رقابتها اخذت تحاربه وقد ظنت ان احتكار الدولة للانتاج وعدم ترك أي فرصة للرأسمال الخاص او صاحب المشروع الفردي انما يعني انجاز الاشتراكية بالتمام والكمال والدخول في مرحلة تاريخية جديدة:مرحلة (الاشتراكية المتطورة) وحتى (الشروع ببناء اسس الشيوعية) واستطاع اقتصاد الظل الذي نشأ كضرورة لسد الفراغ ان ينشر الفساد بما في ذلك في اجهزة الدولة البيروقراطية وحتى في الحزب الشيوعي. وقاومت الدولة وقيادة الحزب المطالبة

بالاصلاح وكممت الافواه الداعية الى التجديد وكان رد الفعل الانشقاقات والتكتلات السرية ولاسيما في اوساط المثقفين والشباب. في حين خيمت اللامبالاة السياسية بين اوساط واسعة من الشعب بمن فيهم جمهرة الحزب الشيوعي. وكفر الشعب بالاشتراكية ناسيا انجازاتها التاريخية التي انقذته من ظلمات الجهل والبؤس والفاقة..ليعاني مرة ثانية من كابوس التمرغ في اوحال التطور الرأسمالي وعلاجاته المدمرة للاقتصاد والمعذبة للجماهير..

وفي يومنا هذا اصبحت امكانية تجاوز البلدان المتخلفة لمرحلة التطور الرأسمالي اوسع بما لا يقاس عما كانت عليه في القرن الماضي او مطلع القرن الحالي. فالثورة العلمية التكنولوجية تتيح لقيادة ديموقراطية ثورية حقا في هذه البلدان تجاوز تخلفها والتحرر من تبعيتها الاقتصادية بسرعة فائقة مستخدمة افضل منجزات الرأسمالية واكثر افضليات الاشتراكية ملائمة وصولا الى الاشتراكية. والتطور اللارأسمالي لا يتنافى كليا مع تطور القطاع الرأسمالي الخاص الخاضع لرقابة الدولة والمجتمع في اقتصاد وطني متعدد الانماط طوال عشرات السنين وحتى تنجز الثورة العلمية التكنولوجية مهمتها التاريخية أي نقل البشرية الى عالم جديد.

تداخل مهمات التحرر الوطني الديموقراطي مع مهمات الاشتراكية:-

يعتبر الاستاذ مسوح من اخطاء الماركسيين العرب في التشخيص والاستنتاج والنهج: "وضع مهمات اشتراكية في مجتمع لم تنجز فيه مهمات التحرر الوطني الديموقراطي

ان الامبريالية قد زرعت العلاقات الرأسمالية في البلدان المتخلفة التي تتعايش فيها مختلف العلاقات من الشيوعية البدائية حتى الاقطاعية واخضعتها لاستثمار الرأسمال الاحتكاري بمختلف اشكاله:ومنها الدين الخارجي الذي تجاوز قبل بضعة سنوات ترليون (مليون مليون) دولار وقد اصبح من المحال تسديد هذا الدين وحتى ان الكثير من هذه البلدان اصبح عاجزا عن تسديد

الفوائد واصبح احد اهم اشكال النضال الوطني التحرري ضد الامبريالية: النضال ضد الدين، وحتى النضال ضد كبار الملاكين وبقايا الاقطاع غدا نضالا ضد الامبريالية التي تحميهم..وحولت الرأسمال الوطني الخاص الى شريك ثانوي لشركاتها الاحتكارية متعددة الجنسية فحكمت على هذه البلدان ومنها بلادنا العربية بعلاقات التبعية الاقتصادية للبلدان الرأسمالية المتطورة واعادت انتاج هذه العلاقات و لم تستطع بلداننا الخروج من عقال هذه التبعية والتخلف الاقتصادي الاجتماعي الذي تفرضه رغم كل التجارب السابقة التي سار بعضها وفق التطور الرأسمالي الحر كالاردن والمغرب او التي وضعت مهام اشتراكية مثل مصر عبد الناصر وغيرها. فالتطور الرأسمالي الحر يعيد انتاج التبعية اوتوماتيكيا.. وتجربة وضع مهام اشتراكية لا يمكن ان تحقق اهدافها بدون الديموقراطية السياسية والاجتماعية. وفشل هذه البلدان في الخروج من التبعية الاقتصادية ليس بسبب وضعها مهام اشتراكية قبل التحرر الوطني الديموقراطي بل لمعاداتها للديموقراطية.

ويقال لماذا هذا التطير من التبعية. فقد اصبح الجميع في تبعية سياسية..!ولكن هذا تعميم ينطوي على مغالطة. فكما يقول الاقتصادي سمير امين:- شتان بين تبعية كندا الاقتصادي للولايات المتحدة وتبعية بلدان العالم الثالث سواء من حيث مستوى التطور الاقتصادي الاجتماعي او مستوى التطور التكنولوجي او اوضاع الطبقة العاملة في كلا الطرفين. ان النضال من اجل تحقيق المهمات الوطنية الديموقراطية لا يصطدم فقط ببقايا الكولونيالية والاقطاعية بل يصطدم بالرأسمال الامبريالي المهيمن مباشرة اوغير مباشرة وبالتالي يتخذ طابعا اجتماعيا يتجاوز العلاقات الرأسمالية الى هذا الحد او ذاك. وهكذا فان منهج الاستاذ مسوح (التاريخي) الذي يضع حجابا حاجزا بين مرحلة واخرى، بين النضال لتحقيق المهمات الوطنية الديموقراطية والمهمات الاجتماعية ذات التوجه الاشتراكي قد غدا منهجا باليا وقد برهنت الكارثة التي حلت بالانظمة الاشتراكية على خطأ الفصل التعاقبي او التعاقب

الانفصالي بين الديموقراطية والاشتراكية وعلى ضرورة التزامن والتلازم بينهما. الان الاشتراكية بلا ديموقراطية لن تعمر طويلا و لم تتطور، والديموقراطية بلا اشتراكية تبقى ناقصة ومنحازة للاغنياء. ففي الانتخابات الامريكية الاخيرة انسحب احد المرشحين للرئاسة لانه لا يملك المال الكافي لمواصلته الحملة الانتخابية في حين واصل المرشح اللاحزبي حملته لانه يملك مليارين من الدولارات مع انه لم يكن يمثل الا اقلية لا تتجاوز ١٩٪من الاصوات وهذا طبعا لا يبرر الاستخفاف بالديموقراطية البرجوازية لانها لم تأتي عفوا بل جاءت ثمرة نضالات مئات السنين وسكبت من اجلها انهار من دماء الشعوب ويمكن توسيعها بالنضال الجماهيري واستخدامها لانتزاع اصلاحات اجتماعية اقتصادية وسياسية.

وفي بلد تسوده الدكتاتورية كالعراق من العبث الحديث عن التحرر الديموقراطي فقد عرضت الاقتصاد الوطني الى الضياع وحطمت منجزات الاجيال من التقدم الاقتصادي الاجتماعي ولا بد ان تحتل الاولوية مهمة اسقاط الدكتاتورية واقامة النظام الديموقراطي كضمانة اساسية للتحرر والتقدم الاجتماعي.

ان التطور الرأسمالي الحر هو طريق الالام والعذاب للجماهير..طريق التبعية للامبريالية وادامة التخلف الاقتصادي الاجتماعي. والراسمال الدولي لا يدخل من التكنولوجيا الحديثة الى البلدان المتخلفة الا ما هو مربوط بخيط يمكنه سحبه متى شاء ليترك البلد متخلفا كما كان..ولذلك لابد من طرح مهمات تحررية تتجاوز العلاقات الرأسمالية من اجل انجاز التحرر الوطني.

ان الاستاذ مسوح يرى مصيبة الماركسيين العرب اكبر لانهم يأخذون بنظريات ونصوص ليست بعيدة زمنيا عنا فحسب بل لانها وضعت لبنية اجتماعية مختلفة" ايضا وعندي ان مصيبة الاستاذ مسوح اكبر لانه يرفض نصوصا وضعت للبلدان المتخافة اصلا ومنها امكانية تجنب المرحلة الرأسمالية

من التطور كليا او جزئيا ويفرض علينا خطا للتطور فرضته على اوربا الغربية وغيرها ظروفها التارخية -يعني حتمية التطور الرأسمالي على كل الشعوب - خلافا للتارخ العالمي وللنظرية الماركسية اللينينية.

الدور الطليعي للطبقة العاملة:

ينتقد الاستاذ مسوح الاحزاب الشيوعية على القول (بالدور القيادي) او(الطليعي) للطبقة العاملة في مجتمع غير صناعي. وفي يومنا هذا يجري التعريض بالدور الطليعي لقيادة الطبقة العاملة بصورة عامة وبغض النظر عن كون المجتمع صناعي او غير صناعي بل يذهب بعضهم الى ان البروليتاريا إما آخذة بالزوال حيث تمتصها الطبقة الوسطى او انها تغدو من مكملات النظام الرأسمالي وتتخلى عن دورها الثوري!

لابد إذا من طرح الاسس التي انطلق منها ماركس في تشخيص الطبقة العاملة للقيام بهذا الدور في السيرورة التاريخية للمجتمع للانتقال من الراسمالية الى الاشتراكية..فالطبقة العاملة بحكم ارتباطها بارقى وسائل الانتاج وما يفرضه عليها من تقدم علمي وتكنولوجي وما يتطلبه من دقة وانضباط فضلا عما يفرضه الاستغلال الطبقي من تنظيم اجتماعي كأساس مادي لإضطلاع الطبقة العاملة بالدور الطليعي في المجتمع هذا بالاضافة الى الوعي الذي كرسته الممارسة بعدم قدرة الطبقة العاملة على تحرير نفسها دون ان تحرر جميع فئات المجتمع المضطهدة. وصاغ ماركس على اساس ذلك رسالة الطبقة العاملة التاريخية في تحرير البشرية من جميع اشكال الاستغلال.. وسار التطور العالمي ولعبت الطبقة العاملة دورها في تحقيق الكثير من الانجازات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية و لم تكن الانهيارات في البلدان الاشتراكية الا نتيجة لتغييب الدور الطليعي للطبقة العاملة في قيادة المجتمع والانابة عنها واستلابها عن وسائل الانتاج. ويعزي المناهضون للدور الطليعي للطبقة العاملة الى ان الثورة العلمية التكنولوجية تقلل من دور الانسان في العملية الانتاجية وتقلص القاعدة الاجتماعية للطبقة العاملة إذ لم تعد العملية

الانتاجية بحاجة الى تلك الجموع الكبيرة وبذلك فقدت الطبقة العاملة دورها الطليعي في العملية التاريخية!

ولكن الثورة العلمية التكنولوجية هي من صنع الانسان ولا يمكن لاي من منجزاتها ان تعمل الا بارادة الانسان وتوجيهه وقد فرضت هذه الثورة تطوير المستوى العلمي والثقافي للطبقة العاملة وطورت حاجاتها ومصالحها وفتحت المجال بما وفرته من انتاجية عالية لتقليص ساعات العمل لكي يتاح للعامل فرصة التعليم والتدريب المستمر والتمتع بمنجزات الحضارة وتطويرها. وفي الوقت نفسه لاتاحة الفرصة لجميع الراغبين في العمل التمتع بحق العمل. وإذ ادى تحكم العلاقات الرأسمالية بافضليات الثورة العلمية التكنولوجية واستمرار اساليبها في استغلال الطبقة العاملة بما فيها طول يوم العمل مما ادى الى تقليص عدد العمال ورمي الملايين في احضان البطالة فإن الثورة العلمية التكنولوجية تضم الى صفوف الطبقة العاملة الى جانب العمال الصناعيين والزراعيين جمهرة ملاكات التوزيع والخدمات والعلماء والمفكرين والادباء والفنانين. فقد دمجت هذه الثورة بشكل متزايد العلم والفن بالعملية الانتاجية وهكذا فان الثورة العلمية التكنولوجية عززت من دور الطبقة العاملة في العملية الانتاجية وفي العملية التاريخية و لم تلغيها..ولكن الاستاذ مسوح لم يدين الدور القيادي للطبقة العاملة عامة وانما القول به في مجتمع غير صناعي ويعني مجتمعاتنا العربية.. فلمن إذن الدور القيادي هذا؟

لم يشر الى البرجوازية صراحة ولاسيما وان التجارب حية ولا زالت معاشة..فقد تسلمت البرجوازية الوطنية الحكم من السلطات الاستعمارية او من الحكومات الموالية للاستعمارولكنها لم تستطع اقامة نظام برلماني ثابت و لم تحقق مهام التحرر الوطني الديموقراطي و لم تستطع حتى الاحتفاظ بالحكم. واستولت على السلطة في بعض البلدان العربية احزاب راديكالية تمثل البرجوازية الصغيرة يدعمها ضباط راديكاليون وعلى رأسهم دكتاتور بونابارتي (فوق الميول والاتجاهات) كما يزعم. واطلق عليهم المنظرون الماركسيون اللقب المشرف

(ديموقراطيون ثوريون) فرفضوه بإباء اشتراكي! في حين لم يفهم احد منهم الف باء الديموقراطية بل كانوا ينظرون اليها بريبة واستعلاء باعتبارها وليدة البرجوازية الغربية هذا من جهة ومن الجهة الاخرى فقد برهنوا على انهم في اغلب الاحوال اشرس واخطر في مكافحة الشيوعية والماركسية حتى من البرجوازية الكومبرادورية والاقطاع واقدر منهم في هذا الميدان.

ان موقفهم السلبي من الديموقراطية وتضييقهم الخناق على الاحزاب الماركسية ارتد على احزابهم فشوهها وادى الى فشل برامجهم الاقتصادية وادى ذلك بدوره الى دفع الجماهير الى احضان الحركات السلفية كما جرى في السودان ومصر والجزائر والى ازمات مستعصية اخذ بعضها برقاب بعض دع عنك المغامرات الكارثية التي اقترفها حكام العراق.

وقد انتشرت في السنوات القلائل الاخيرة بين اوساط المعارضة العراقية في ديار الغربة الوهم بان البرجوازية بما فيها الكومبرادورية وحتى الملكية إذا عادت الى سدة الحكم فسوف تبادر الى ادخال الديموقراطية..ولاشك في ان قدرا معينا من الديموقراطية التداولية سيعود بين الاوساط البرجوازية الحاكمة ولكنها لن تكون ديموقراطية للجميع..مع ذلك فهذه افضل على كل حال من النظام الدكتاتوري الراهن..أوَ ليس كذلك؟

بلى ولكن هذا مزاج يائس على كل حال. فاذا كان بامكان الشعب العراقي الاطاحة بالنظام الدكتاتوري الراهن فلماذا البديل المصطنع المستورد؟

لماذا العودة الى الوراء والتحالف مع الرجعية والامبريالية وقد مر الشعب العراقي بكل تلك التجارب المرة وعبر عن رفضه لها في ثورة ١٤/ تموز/١٩٥٨ وبعد كل هذه التجارب يرفض الاستاذ مسوح القول بقيادة الطبقة العاملة في المجتمع غير الصناعي ولا يحدد في أي مرحلة من التصنيع يجب ان ننادي بهذا الدور. ففي الثورة الصينية التي قادها صن يات صن بين١٩٢٥-١٩٢٧ كانت الطبقة العاملة الصينية الصناعية بالمعنى الحديث للكلمة لا تتجاوز الخمسة ملايين

من نفوس الصين (حوالي ٤٠ مليون) ومع ذلك كانت طليعة الثورة وكانت الثورة قاب قوسين او ادنى من الانتصار الحاسم. فتوالت الاحداث سراعا وتوفي صن يات صن قائد الثورة وضربت الاساطيل الامبريالية شنغهاي وخان الثورة قائدها الجديد جيانكاي شيك ولكي يتسنى له التساوم مع الامبريالية ذبح خمسة ملايين عامل صناعي بروليتاري صيني عن آخرهم. فهل كان المجتمع الصيني آنذاك صناعيا؟ هل كان صناعيا اكثر من مصر التي كان لعمالها حزب اشتراكي ماركسي وفي اضرابهم عن العمل عام ١٩٢٣ احتلوا المعامل واخرجتهم شرطة سعد زغلول باطلاق النار.

ورغم تخلف الاقطار العربية على العموم في ميدان التطور الصناعي فكل قطر عربي ظهر فيه حزب ماركسي كانت فيه طبقة عاملة ناشئة وفي بعض الاقطار ظهرت الطبقة العاملة الى الوجود في المشاريع الامبريالية قبل ان يظهر الرأسمال الوطني الصناعي، وعبرت عن وجودها وفرضت نفسها على المسرح الاجتماعي الاقتصادي والسياسي سواء في النضال الوطني او الطبقي، أي في الدفاع عن مصالحها الطبقية. فاثبتت انها (طبقة لذاتها) كما يقول ماركس وليس طبقة منطوية على ذاتها.

لقد تكونت الطبقة العاملة العراقية مثلا على يد الامبريالية قبل تكوين الرأسمال الوطني في الصناعة والطبقة التي تمثله. واسست الطبقة العاملة العراقية حزبها الماركسي اللينيني الذي تبنى رسالتها. وهو اقدم حزب سياسي عراقي من بين الاحزاب السياسية التي تأسست خلال ستين سنة الاخيرة والتي لاتزال على قيد الحياة. كما انه الحزب الرئيس في ميدان التحرر الوطني الديموقراطي. وقد قدم للحركة الثورية اصوب الشعارات ونشرها في صفوفها وحولها الى قوة مادية وتصدر النضال الجماهيري.. الا يكفي هذا يا ترى ليحق لنا القول بطليعية الطبقة العاملة في حركة شعبنا التحررية الديموقراطية ام انه يجب ان ننتظر حتى يصبح مجتمعنا صناعيا بالمستوى الاوربي؟! وبطليعية أي طبقة يقترح؟

ها هي قيادة البرجوازية الصغيرة قد خرجت بفضل مغامراتها والركض وراء الاوهام الامبراطورية قد خربت ما بناه شعبنا خلال عشرات السنين وسامته من الارهاب والاذلال ما لم تفعله البرجوازية الكومبرادورية والرجعية.

اما البرجوازية فسوف تصنع بلادنا ببطء وتمتص دماء كادحينا بهدوء وتحت لافتات الحرية والديموقراطية والقانون تعيد انتاج التبعية للرأسمال العالمي.

لقد وضع الحزب الشيوعي العراقي في فترة معينة في برنامجه:- ان الثورة الوطنية الديموقراطية لا يمكن انجازها إلا بقيادة الطبقة العاملة، ولكنه لم يشترط على أي حزب التسليم بهذا المبدأكشرط للتحالف معه وبالمقابل رفض التسليم بقيادة حزب البعث الحاكم كشرط للتحالف معه طيلة الفترة (١٩٦٨-١٩٧٣) ولكنه مع الاسف سلم اخيراً بقيادة حزب البعث الحاكم للجبهة (١٩٧٣-١٩٧٨) وكان هذا التسليم شؤما على الحزبين وعلى الشعب العراقي. وقد اثبت حكم حزب البعث في العراق خلال ربع قرن بان مواقفهم من الديموقراطية السياسية وحقوق الانسان اسوأ حتى من مواقف الكومبرادور والاقطاع بحيث دفع اليأس بالمعارضة على تمني عودة حكم هؤلاء، أي العودة الى الوراء بالتحالف مع الرجعية والامبريالية. وقد تكشف هذا اليأس منذ احتلال الكويت على الاخص ومبعثه ضعف الثقة بقدرة الشعب العراقي والبعد عن ارض الوطن..

ان العقبة الكؤد في طريق تقدم العراق هو النظام الدكتاتوري وان تصفية هذا النظام على يد القوى الوطنية المتواجدة على ارض الوطن هو الشرط الاول والرئيس لاقامة نظام ديموقراطي وحكومة ائتلافية انتقالية تضم كافة القوى المحبة للديموقراطية تشرف على انتخابات حرة مباشرة للسلطة التشريعية التي تضع الاسس لارساء النظام الديموقراطي.

ان الثورة العلمية التكنولوجية الجارية في العالم قد جمعت حركات التحرر الوطني الديموقراطي والاجتماعي والتقدم الحضاري المتزامنة المترابطة

المعتمدة بعضها على بعض في مجرى ثوري واحد بحيث لا يمكن جدولة مهامها او تقسيطها ولا يمكن تحقيقها لصالح الشعوب والانسانية عموما الا بتحالف جميع الحركات الديموقراطية وفي مقدمتها الحركة العمالية التي تتصدر نضال الشعوب بما تقدمه من تضحيات وبرامج وسياسات علمية تقدمية وثورية. ومن اجل هذا تحتاج الشعوب لاحزابها الشيوعية المؤمنة برسالتها التاريخية:-تحرير الانسانية من جميع اشكال الاستغلال والاضطهاد، الاحزاب المسترشدة بالماركسية اللينينية ومبادئها الانسانية والاممية، الاحزاب المستوعبة لروح العصر، عصر الثورة العلمية التكنولوجية التي لن تتحقق على الوجه الامثل ولصالح الانسانية الا في ظل الاشتراكية.

ان العالم يقترب بخطى متسارعة نحو الاشتراكية ويجمع خبرة مفكري العالم على ان الانسانية في عصر الثورة العلمية التكنولوجية امام احد احتمالين لا ثالث لهما:-فاما الاشتراكية او البربرية، لان هذه الثورة سلاح ذو حدين وتتوقف نتيجة استعماله على طبيعة من يستعمله: الطبقة العاملة ام البرجوازية؟ الاشتراكية ام الرأسمالية؟ ولصالح الانسانية يجب ان تنتصر الاشتراكية. بيد ان ذلك لا يعني ان الانسانية سوف تستيقظ صباح ذات يوم مشرق لترى اعلام الاشتراكية ترفرف على اقطار العالم اجمع. ان الاشتراكية لن تتحقق عفويا بل نتيجة نضال واع اجتماعيا، نتيجة فعل دؤوب يجري على اساس استيعاب الثورة العلمية التكنولوجية والديموقراطية. ولا يمكن ان تسير جميع الاقطار على نسق واحد مطرد وعلى وتيرة واحدة، فلن تنضج فيها الاشتراكية في آن واحد.

وقبل قرن ونصف رأى ماركس وانجلس ان الثورة الاشتراكية لا يمكن ان تنتصر نهائيا مالم تتحقق في البلدان الصناعية الرئيسة الثلاث انذاك: بريطانيا وفرنسا والمانيا. واليوم بعد ان اصبحت الحرب بحكم المحال وبفضل الثورة العلمية التكنولوجية وعلى اساس الديموقراطية يمكن ان تنتصر الاشتراكية في بلدان كبرى فرادى كالولايات المتحدة وروسيا والصين والهند

التي تضم فيما بينها نصف سكان العالم، شرط استيعاب التجربة الروسية وتجديد طريقة العمل فرغم الكارثة لا يزال عصرنا يستحق اسم عصر الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية.

الشيوعيون والقضية القومية:

ومن بين النقدات الخطيرة التي يوجهها الاستاذ مسوح الى الاحزاب الماركسية في البلاد العربية:-(اغفال دور العامل القومي والقفز فوق مهمة الوحدة القومية) و لم يصرح الاستاذ كيف قفزت الاحزاب الماركسية من فوق مهمة الوحدة والى اين؟ هل للاشتراكية؟ وفي أي برنامج قرأ مثل هذا الشرط؟

كل ما في الامر هو ان يرشقنا بسهام عفلق القديمة الطائشة بعد موت صاحبها.. نحن الماركسين اللينينين الملتزمين بمباديء الاممية البروليتارية ندافع عن حق كل شعب في تقرير مصيره بنفسه بما فيه حق الانفصال في دولة وطنية مستقلة او الاندماج باشقائه فيما وراء الحدود ونعتبر هذا الحق من حقوق مرحلة التحرر الوطني الديموقراطي وليس من الضروري تعليقه بالثورة الاشتراكية ولا يشترط لتحقيق الوحدة العربية او اية وحدة مماثلة الا ان يكون الشعب سيد نفسه في الاقطار المعنية بالوحدة ليكتب للوحدة المنشودة البقاء والتطور ولئلا تتكرر تجارب (الابطال المحررين) الوحدوية التي ماتت قبل ان تعدو الفطام.

والعجيب ان يوجه هذا النقد الى الاحزاب الماركسية بعد كل الذي جرى في دنيا العرب ولا سيما منذ صيف ١٩٩٠ حيث لم يعد بامكان أي وحدوي مغالي ولكنه منصف ان يوجه هذا النقد للاحزاب الماركسية في هذا الجزء من العالم بيد ان الاستاذ مسوح يستطيع لانه يمارس حق النقد الذاتي المقدس باعتباره من اتباع المنهج الماركسي او على الاقل ممن يفضلونه على غيره من المناهج كما يقول هو عن نفسه. وفي العراق يقولون:اذا كان شاهدك من بيتك يحلل قتلك.

والحق نقول ان الاربعين سنة الاخيرة قد برهنت على ان سياسات الاحزاب الشيوعية في البلاد العربية كانت اقرب الى الواقع العربي من الاحزاب القومية من قضية الوحدة. ومع ذلك فانها لم تكن منزهة من الخطأ او قلة الصبر بحيث كانت تبدو احيانا كأنها من خصوم الوحدة بنظر الجماهير الوحدوية لتجد نفسها منعزلة عن هذه الجماهير او حتى في صفوف اعداء الوحدة كما جرى بعد انهيار الجمهورية العربية المتحدة كرد فعل للحكم المباحثي خلال تلك الوحدة التي لم تقم على اسس ديموقراطية راسخة بل على موجة من الحماسة الوقتية لم تلبث طويلا.

لقد حذر الشيوعيون مقدما من تجاهل الخصائص القطرية التي تكونت تاريخيا فاتهمهم عبد الناصر (بالشعوبية والعداء للوحدة وبالعمالة) وبعد فشل الوحدة مع سوريا عاد فاعترف باهمية الخصائص القطرية في محادثات الوحدة في نيسان /ابريل/١٩٦٣ ومع ذلك وعندما ذكره احد اعضاء الوفد السوري بكلام عبد الكريم قاسم (نحن جزء من كل ولسنا جزء من جزء) يعني ان العراق جزء من الامة العربية وليس جزء من مصر، رد عليه عبد الناصر: كان قاسم شعوبيا!

لقد تحقق العديد من التجارب الوحدوية كانت في الحقيقة احلافا وقتية بين الحاكمين انفسهم و لم تعمر طويلا وقد تكررت في حياة الحاكم نفسه اكثر من مرة ليفاخر بها وكأنها بطولات اولمبية تتكرر مرة كل اربعة سنوات. ومن سخرية التاريخ التي لن ينساها الاستاذ مسوح ان الاحزاب التي نقشت على راياتها شعار الوحدة باعتبارها مبدأها الاول الكلي المطلق هي التي قوضت خيمة الجمهورية العربية المتحدة حرصا منها على الخصوصية القطرية في حين كان الحزب الشيوعي المعني مطاردا و لم يطالب الا بوضع الوحدة على اسس ديموقراطية وواقعية ولا سيما واقع القطر المعني ومستوى تطوره.

وانتهت آخر تجربة وحدوية بكارثة تاريخية على الامة العربية عندما فرض صدام حسين الوحدة على الكويت على طريقة بسمارك، أي بقوة

السلاح. و لم تقف غالبية الاحزاب الشيوعية وحدها ضد هذا الاسلوب القسري للوحدة بل الحكومات العربية ايضا. وحتى اسلوب قاسم غير المسلح والذي لم يتجاوز حدود الادعاء بعائدية الكويت للعراق قوبل باشد المعارضة حتى من جمال عبد الناصر اشد الوحدويين تعصبا للوحدة.

ان السبب الرئيس في فشل تجارب الوحدة هو ان الشعب في أي قطر عربي لم ينل بعد حق السيادة على الدولة و لم يمارس الديموقراطية ليقرر مصير الوحدة ويحافظ عليها ويدافع عنها ويبذل التضحيات في سبيل ديمومتها وتطويرها.

ان الطبقات الحاكمة في البلاد العربية لم تجد في الوحدة العربية مصلحة لها كما ان الصهيونية والامبريالية تخاف من قيام دولة عربية متحدة اندماجية او فدرالية خوف الشيطان من النار. ومهما كانت طريقة تحققها ولكنها تجد نفسها اقل قدرة على احباط الوحدة التي يقررها الشعب سيد نفسه. في حين ان من مصلحة الطبقة العاملة العيش في دولة اكبر اذ تجد فيها فرصا للعمل اكثر كما يرى لينين، الذي قال ايضا ان بناء الاشتراكية سوف يكون ايسر كلما كانت البلاد اكبر.

لقد استقلت الاقطار العربية كدول ذات سيادة بعد الحرب العالمية الثانية واخذت تتطور تطورا مستقلا بمعدل قرن واحد من الماضي في كل سنة من الحاضر وقد اخذ التطور طابعا مزدوجا: فمن جانب تتطور خصوصية كل قطر عربي وهي خصوصية تكونت تاريخيا، ومن الجانب الاخر تتطور عوامل الوحدة العربية ولا سيما الثقافية، وعلى الاخص اللغة العربية. وفي اعتقادي ان ام كلثوم ومحمد عبد الوهاب والجواهري وغيرهم من الفنانين والادباء من رجال الثقافة ونسائها عملوا من اجل تطوير الوحدة العربية اكثر مما فعله الساسة الوحدويون جميعا. ويبرز عامل الوحدة بخاصة في المغارب العربية، في عملية التعريب حيث لاول مرة يتكلم الساسة المغاربة بالعربية بطلاقة، بدلا من الفرنساوية. ان العامل الحاسم لاقامة أي درجة من درجات الوحدة هو

العامل السياسي أي ان يحصل الشعب في كل بلد عربي على حق السيادة على دولته. ومع ذلك فان الاقطار العربية تسير سيرا وئيدا نحو التكامل والوحدة لان سيرورة الوحدة والتكامل طابع عصرنا في مختلف مناطق العالم وما جرى من تفكك في الاتحاد السوفيتي ويوغسلافيا وتشيكوسلوفاكية انما هو رد فعل وقتي للوحدة الاندماجية او المطلقة السابقة. والاخطاء الفضة التي ارتكبها الحاكمون واخيرا وليس اخرا الدسائس الامبريالية.

واخيرا ليس هناك من اساء الى الوحدة العربية اكثر من غلاة الوحدويين سواء عن طريق تجاهل ارادة الشعوب ام عن طريق فرضها بقوة السلاح..ان حرب الكويت التي مزقت الصف العربي الى حد الاحتراب بالسلاح سببت اكبر انتكاسة لقضية الوحدة العربية واعمق ازمة لغلاة الوحدويين ولا يخرجهم منها توجيه النار الى الشيوعيين باستخدام عتادهم القديم.ولا يستخدمونه هم هذه المرة بل يقذفه(منهجي ماركسي) واعود واسأله من منا قفز فعلا من فوق الوحدة القومية نحن الماركسيين ام غلاة الوحدويين؟ من منا ادخل القطيعة الكلية والحرب الباردة المديدة الى العلاقة بين قطرين عربيين مسلمين وحدويين متلاصقين متشابهين في جميع الصفات الاساسية؟

ان الاحزاب الشيوعية تدرك جيدا مسؤوليتها التاريخية في هذه الازمة العصيبة تجاه مصائر البلاد العربية وقضية الوحدة التي تتفق ومصالح الطبقة العاملة وتلبيها اكثر سواء من وجهة نظر المصالح الانية ام مصلحة بناء الاشتراكية. ولذلك تاخذ الاحزاب الشيوعية على عاتقها مهمة الوحدة العربية مقترنة بقضية الديموقراطية التي تعترف للشعوب الاخرى المتعايشة معها حق تقرير المصير. ولا شك في ان الاساس الراسخ لدولة الوحدة هو الاقتصاد المشترك وهو الحلقة المفقودة من بين عوامل الوحدة العربية. ويمكن للاقتصاد المشترك ان يتطور تلقائيا خلال مدة مديدة، ولكن يمكن ايضا تسريعه حتى بين امم لا تجمعها وحدة قومية كما يجري الان في اوربا الغربية. فالوحدة السياسية على اساس ديموقراطي بين الاقطار العربية هي اقوى عامل مسرع

للوحدة الاقتصادية، يعني الاقتصاد المشترك، بامكانه اختزال مائة سنة من التطور العفوي الى عشر سنوات من التطور المنهجي لتحقيق التنمية على اساس التكامل الاقتصادي. و لم يعدفي يومنا هذا تحقيق دولة الوحدة العربية على يد اية بروسيا عربية او أي بسمارك عربي ولا بالجبروت العسكري باي حال من الاحوال. هذا ما تعلمنا اياه النظرية الماركسية اللينينية ومنهجها المادي الديناليكتيكي يا استاذ مسوح فضلا عن تجربة الحياة.

دور العامل الديني والروحي:

ومن انتقادات الاستاذ مسوح للماركسين العرب:"عدم ادراك دور العامل الديني والروحي بعامة في التطور الاجتماعي

ان احزابنا، احزاب علمانية ولكنها لا تحتكر هذه الصفة لنفسها فهناك العديد من الاحزاب العلمانية التي سبقتها في البلدان العربية وفيها احزاب نشأت بعد ثورة ١٩٠٨ التركية واحزاب جديدة جاءت بعدها وتولت السلطان ولكن احزابنا تضم في صفوفها اعضاء مؤمنين ينتسبون الى شتى الاديان والمذاهب والملل والنحل، منهم الاستاذ مسوح الذي يجمع حسب قوله بين عقائد شتى في الحياة من ابو نؤاس الى المهاتما غاندي.. ولكن تجمعهم وجهة نظر عالمية واحدة هي المادية الديناليكتيكية وتسترشد بها ولا توارب وتناضل ضد المثالية والميتافيزيقية والمادية المبتذلة نضالا فلسفيا.. والماركسية تنظر الى الدين باعتباره جزءا من الايديولوجيا التي تلعب دورا فعالا في اللحظات الحرجة من السيرورة التاريخية وقد يكون ثوريا كما جرى في النضال ضد التشكيلة الاقطاعية واحيانا ضد الكولونيالية في عصرنا. وقد قيم ماركس وانجلس حركة النبي العربي الوحدوية التي وحدت القبائل وجعلتها قومية عربية واحدة وحررت الجزيرة العربية من الحكم الاجنبي وجعلت منها دولة واحدة ويرجع انجلس الى الاسلام الفضل في تأميم الارض (من الاندلس الى اندنوسيا).

ان الماركسية لا تصادر حرية العقائد سواء كانت دينية او علمانية ولا حرية العبادة ولكن الماركسية لا تتصالح مع الفلسفة المثالية وتناضل ضدها نضالا فكريا أي تقارعها الحجة بالحجة. والماركسية حزبية أي انها متحزبة لفكر الطبقة العاملة ضد الفكر البرجوازي والاقطاعي والافكار الغريبة دون ان تنغلق على نفسها اذ انها تقيم كل ما هو ايجابي في المدارس الفكرية الاخرى وتتبناه وتناضل ضد كل ما هو سلبي ونرفضه وقد تبنى ماركس وانجلس كل ما هو ايجابي وسليم من افكار الاشتراكيين الطوباويين والمثاليين (هيغل) وانتقدا بصرامة علمية كل ما هو سلبي وزائف.

وعلى قدر ما اعرفه لم يتطور أي حزب ماركسي في البلاد العربية في صراع مع الاديان والمتدينين و لم يهدم الشيوعيون دور العبادة و لم يقتل او يعدم شيوخ الاسلام.. بل نحن نستطيع ان نتحالف مع المتدينين تحالفا سياسيا في قضية مشتركة كقضية الديموقراطية مثلا وقد دخل الحزب الشيوعي العراقي فعلا في احلاف مع الحركات الاسلامية. وقد حاول بعض الشيوعيين ايجاد لغة مشتركة مع الدينين، وكان رد الفعل عليها قاسيا: فعندما كتب خالد بكداش الامين العام للحزب الشيوعي السوري اللبناني في حينه ان مباديء الشيوعية لا تتناقض مع تعاليم الاسلام ردت عليه جريدة (القبس) الدمشقية ردا قاسيا موتورا زاعمة انه يجدف بالاسلام وفي الثلاثينات نشرت الطليعة البيروتية مقتبسا:

﴿ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يفعلون..﴾

ويغيض هذا المقتبس الطبقات المالكة لانه ينص على مصالح الفقراء صراحة وليس كل النصوص بمثل هذه الصراحة. فالكثير منها حمال اوجه يفسره كل على هواه (قاتل الله المفسرين).

فالشيوعيون لا ينفون التراث الديني نفيا عدميا مطلقا بل يمحصونه ويميزون رسالته الاصلية التي جاءت لمصلحة الفقراء والمستضعفين في الارض وبين ما علق

به من تفسيرات وتأويلات لصالح الطبقات المالكة في مختلف العصور لانها تبعث الخنوع والاستسلام لدى الجماهير وتذلها. فمثلا في صدر الاسلام جعلت ارض العراق الزراعية خراجية بيد فلاحيها يدفعون الريع (الخراج) لبيت مال المسلمين ليصرف على الشؤون العامة ويوزع معاش للمسلمين كافة. فكيف تحولت ارض السواد في القرن العشرين الى اقطاعات كبيرة مساحة كل منها الاف الهكتارات يتمتع بها كبار الملاكين مع ان الاسلام كان دائما دين الدولة الرسمي؟ ويوجد الان من المتدينين من يحرم توزيع الاراضي مجددا على الفلاحين بدعوى ان المصادرة من المحرمات! وهي لم تكن في الحقيقة سوى مصادرة المصادرين أي كبار الملاكين انفسهم. وبعض المؤمنين لم يتوان صراحة عن الدفاع عن الاقطاع. ويرفع الاصوليون اليوم في مصر والسودان والجزائر رايات الدين ولكن هل تتفق جميع اعمالهم مع ما جاءت به الديانات؟!

واذكر بالمناسبة ان الرفيق كريم مروة القائد الشيوعي اللبناني عقد قبل بضع سنوات ندوة في لبنان فتح فيها باب الحوار مع الاسلاميين واذكر ان احد المؤمنين ممن حضر الندوة،و لم اعد اذكر اسمه، رد عليه صراحة قائلا:

"اهلا وسهلا! ها انت قد عدت الينا ولكن لماذا تدخل من الشباك وليس من الباب..

ومن هذا الجواب يفهم ان المؤمنين لا يحبون المداعبة بقدر ما يتعلق الامر بالعقيدة ولا التجزئة والتقسيط ولا الحلول الوسطية او التطعيم، بل يريدون اما واما..اما الايمانية الخالصة لوجه الله واما المادية الملتزمة بالماركسية اللنينية..فلم يتقدم مشروع مروة خطوة واحدة حتى الان على ما اظن وللرفيق مروة علاقة روحانية بالنجف الاشرف وجامعتها العريقة، وعمرها الف سنة. فهو نصف عراقي ونصف لبناني.

ويذكرنا نقد مسوح للماركسيين العرب او وصمهم "بعدم ادراك العامل الديني والروحي بعامة في التطور الاجتماعي بنقد ميشيل عفلق الذي قال: "انا لست ضد الماركسية ولكن البعث هو الاشتراكية العلمية زائدا الروح"

و لم يفسر الاستاذ مسوح ماذايعني بالروح والحال ان نقد عفلق كان اكثر احتراما للماركسية وقد فسر ما يعنيه بالروح وقال:"ان روح القومية العربية هو الاسلام وتخلى عن ايمانه الارثدوكسي واعتنق الاسلام. ولاسباب سياسية كما قيل لم يعلن اسلامه الا بعد وفاته. ولكن هل غدا عفلق اقرب الى الروحاني ام الى القوماني عندما قصف حزبه في العراق دور العبادة دون ان يحتج!! وماذا يطلب الاستاذ مسوح من الماركسين العرب ليبرهنوا له اهتمامهم بالجانب الروحي بعامة؟ هل يقتدوا بعفلق ام ماذا؟!

وعلينا الان ان ندرس على ضوء الماركسية ومنهجها الدياليكتيكي منهاج الحركات الدينية وممارساتها لنحكم اليها، او عليها، لا من اقوالها بل من اعمالها اولا وقبل كل شيء.

يجب ان لا تعتبر الجماهير حقلا لتجارب أي حركة من الحركات التي تبدو جديدة وان لم يكن بالاسم، بل نساعد الجماهير قدما على التمييز بين الغث والسمين ونترك لها الحكم النهائي على هذه الحركة او تلك. والا فما هو الدور الطليعي اذن؟ هل نقول للشعب: اذهب انت وربك فقاتلا ونحن ها هنا قاعدون ليخوض الشعب لوحده تجربته مع هذه الحركة او تلك: دينية او علمانية، لنحكم على النتائج فيما بعد الوفاة!! وما فائدة نظريتنا العلمية الطليعية؟! هل هي كتابة تاريخ ما هو كائن فقط ام استشراف ما هو آت اولا وقبل كل شيء؟!

وهل نحن ماديون بلا روح؟

عندما اتخذنا الشيوعية مذهبا لنا في الحياة. و لم نكن نعرف الف باء النظرية او الايديولوجية او الدياليكتيك (المنهج والمنطق) اذ لم نكن من ذوي الثقافة العليا التي تؤهلنا للشيوعية عن طريق الفلسفة و لم نكن من البروليتاريا الصناعية لنتوصل اليها عن طريق النضال الطبقي ضد الرأسمالية من اجل اثمن مصالحها الانية. وقد كانت الحركة المطلبية لا تزال في القماط، بل صرنا

شيوعيون روحيا.. توصلنا من احاديث ابائنا ومعلمينا وحتى من هجاء الاستعمار للشيوعية..عرفنا انها طريق التضحية والفداء لبناء جنة الكادحين على الارض.. كان ايماننا بالشيوعية ايمانا روحيا و لم نتعرف على النظرية الماركسية اللينينية الا بعد سنين طويلة عندما توفرت بلغتنا العربية مكتبة ماركسية لينينية وافية بالمرام.

ان افدح اخطائنا نجم عن التجريبية والفقر النظري وليس عن التبحر بالنظرية ولا من اعتبارنا الماركسية اللينينية نظرية او ايديولوجيا بدلا من اعتبارها منهجا، وليس من اهمالنا الجانب الروحي. فالروح الانسانية:روح الايثار والتضحية والفداء من اجل الكادحين والمعذبين هي التي مكنتنا من الصمود وتحمل التضحيات.الرهيبة: عشرات السنين في السجون والتشرد والاختفاء والموت تحت التعذيب او على اعواد المشانق او برصاص العدو..وكان الادب والفن الشيوعي يغذي نفوسنا ويغمرها. فكان الشيوعيون في زنزانات الاعدام يتغنون بشعر ناظم حكمت الشيوعي التركي ويكتبون على جدرانها ابياتا من شعره:

اذا لم احترق انا؟

وتحترق انت؟

ونحترق نحن؟

فكيف يخرج من الظلمات نور؟!

ان ارواحنا هي روح شعبنا الكادح الثائر وقد هذبته الشيوعية حيثما كان لها حضور ووجهته ونظمته وبهذه الروح الواعية نستطيع الصمود بوجه اسوأاحباط في تاريخ حركتنا العالمية الحافل باروع الانجازات في تاريخ الانسان، بان نندمج بشعبنا في احرج ايامه وننغمر في همومه. لقد قدمت حركتنا تضحيات "رهيبة"على حد تعبير (نيويورك تايمس) احدى كبريات الصحف البرجوازية التي تزعم ان تضحياتنا ذهبت ادراج الرياح. والحقيقة ان اية حركة اجتماعية اخرى لم تقدم على مر العصور والاجيال ما قدمته حركتنا من تضحيات بفضل روحها

الثورية الواعيـة وعدالـة قضيتهـا ولكنهـا لم تذهـب سـدى.! فقـد انـارت السـبيل للبشرية التقدمية وحتى افدح اخطائها قدمت للانسانية تجربة لا تقـدر بثمـن علـى طريـق التقـدم و لم يشـهد تـاريخ العـالم حركـة اجتماعيـة بـلا انتكاسـات وكوارث..والنهوض من الكبوة رهن بايماننا الواعي بعدالة قضيتنا ووعينـا الطبقـي متجسدا بالماركسية اللينينية وروحها الثورية، روح التجديد الدائب.

طريق التجديد..بماذا نبدأ؟

يقول الاستاذ مسوح في بداية بحثه:"ولعل البحـث يجـب ان يتعـدى الجـانب التطبيقي الى جانبها النظري. فليس معقولا بعد انهيـار النمـوذج الـذي اقيـم تحـت شعارات الماركسية ولوائها ان يبقى الفكر ذاته بعيدا عن اعادة النظر النقدية.

اصبح التجديد ضرورة مصيرية..وعليه يتوقف البقاء او العدم.. والمسألة هنـا هي بما نبدأ؟ بنقد الفكر الماركسـي ام بنقـد التجربـة؟ بدراسـة الظـروف المعـاصرة والواقع العربي اولاً للمساهمة في تطوير الفكر الماركسي أم اولاً لدراسة الظـروف المعاصرة والواقع العربي؟ يأتي الجواب من في الفصـل الخـامس مـن بحـث الاسـتاذ مسوح:"٥- تطور الفكر الماركسي بالاداة الماركسية ذاتها"

وفي هذا الفصل اعطانا الاستاذ نموذجا لهـذه الاداة وهـو ثنائياتـه الثلاثيـة الثلاث مؤكدا اهميتها لتجديد الماركسية وتتلخص في اسـتخدام المنهـج لنفـي النصوص باستمرار دون ان يشير الى الجـانب التطبيقـي او علاقتهـا بالممارسـة وقد ناقشناها في اواخر الفصل الاول من بحثنا هذا واشرنا الى خطئها العرفاني وهو التفريق بين النظرية والمنهج ومعارضة احدهما للاخر.

والان نشـير الى فصـل الاسـتاذ مسـوح بـين الماركسـية والممارسـة ومحاولتـه تطويـر الماركسـية او تجديدهـا بمعـزل عـن الممارسـة، عـن التجربـة، عـن الجـانب التطبيقي. فلكي نساهم مع سائر الحركة الشيوعية العالمية في تجديد الماركسية يجب ان نكشف عما شاخ منها، ما تخلف عن الواقع، ولكي نعرف ما تخلف منها عـن الواقع يجب ان نعرف ما استجد في هذا الواقع، وفيما تجاوز الواقع نظريتنا العلمية.

وللتوصل الى هذا يجب ان نستخدم النظرية العرفانية الماركسية ونهجها لدراسة الواقع الراهن العالمي والعربي والقطري، وتجربتنا نحن الشيوعين ونكشف اخطاءنا نحن بالذات بكل جرأة ونقرر بكل صدق ما اذا كانت النظرية هي التي ضللتنا سواء السبيل ام نحن ضللنا سبيلنا لاننا لم نعرف كيف نسترشد بها في ظروفنا التاريخية المعينة. وما إذا كانت اخطاؤنا نتيجة للجمود العقائدي او تحريفها،او النوم على النظرية او الجهل بالنظرية،والوقوع في التجريبية؟

ان تجديد الماركسية يستلزم قبل كل شيء تجديد احزابها فهي الذات الفاعلة والرأس المفكر الذي يتوقف عليه التجديد الذي يجب ان يكون فكريا وسياسيا وتنظيميا. وتجديد الحزب الثوري الذي يريد تغيير عالمه يستلزم قبل كل شيء وفوق كل شيء ان ينغمر في صفوف الشعب العامل ولا سيما الطبقة العاملة وهي الطبقة الجديدة النامية بسرعة في البلدان العربية والمرتبطة بارقى وسائل الانتاج، وما تفرضه من معارف علمية وتكنولوجية. وعلى نضوجها السياسي ونضالها الثوري يتوقف لا مصير الاشتراكية فقط بل مصير الديموقراطيةالسياسية ايضا ومصير الوحدة العربية كذلك. ان الحزب السياسي الذي ينغمر في نضال الجماهير المطلبي والسياسي هو الحزب الذي سوف يتحسس في كل لحظة الحاجة الى النظرية العلمية المرشدة ومنهجها والحاجة بدورها تدفعه الى البحث عن تطوير النظرية والمنهج فالحاجة ام الاختراع، كما يقال. اما الاحزاب التي رضيت لنفسها بدور وعاظ السلاطين فاي حاجة بها لتجديد النظرية او تطويرها؟!

وحتى الاحزاب التي كانت في سدة الحكم ابتعدت عن الانغمار بين الجماهير والنضال من اجل حاجاتها الحيوية ولذلك نسيت النظرية او تطويرها فارتكبت في الممارسة اخطاء لا تغتفر ادت الى الازمة التي تعيشها في يومنا هذا.

يرى الاستاذ مسوح ان الحزب اللينيني"الحزب من طراز جديد"من افكار لينين التي يصنفها في جدول"اعادة انتاج الماركسية روسيا"والتي يعتبرها من

التراث الصالح للاطلاع فقط أي يدعو للتخلي عن السمات الاساسية للحزب اللينيني باعتباره طليعة الطبقة العاملة وحامل رسالتها التاريخية واعلى اشكال تنظيمها القائم على المركزية الديموقراطية ووحدة الارادة والعمل ويبني تنظيماته على الاسس الوطنية والاممية ويجمع بين القوميات والاجناس الاثنية بصرف النظر عن الاديان والطوائف والاقاليم..وهو حاصل جمع منظمات وليس افراد لا يجمعها تنظيم بل يلتزمون بنظام داخلي واحد ويخضع جميع اعضائه وهيئاته الى انضباط واحد ويرتبطون ببرنامج واحد..ان هذه الوحدانية في الحزب الشيوعي لم تكن في حياة لينين تتعارض مع تعددية الاراء والاجتهادات. ان وحدة الارادة والعمل ضرورية بخاصة للحزب الثوري ومع ذلك فقد اسئ استخدامها ولكن لا يجب الغاءها في الحاضر جراء سوء استعمال في الماضي وتتحقق وحدة الارادة والعمل عن طريق المركزية الديموقراطية المصطلح الذي اصبح ممقوتا جراء سوء استعماله والحال لا يمكن لاي حزب سياسي ان يبنى الا على اساس المركزية الديموقراطية سواء نص عليها نظامه الداخلي ام لم ينص.. وهي تعني في التطبيق الصحيح خضوع الاقلية للاكثرية وحق الاقلية في التبشير برأيها لاقناع الاكثرية به وليس لمجرد(الاحتفاظ برأيها) ومن نافلة القول انها لا تتعارض مع تعددية الاراء والاجتهادات. وكرد فعل لغياب الديموقراطية في الماضي وسيادة المركزية البيروقراطية لفترة طويلة تشتد الان نزعات ليبيرالية مضادة..ان النص في النظام الداخلي على التزام الحزب بالمركزية الديموقراطية لا يكفي فقد بقي هذا النص عشرات السنين دون تطبيق بل اسئ تطبيقه لجانب المركزية المطلقة أي البيروقراطية فاولا يجب ان ينص النظام الداخلي على حقوق العضو والهيئات الحزبية بصورة عينية واضحة تطبيقا للمركزية الديموقراطية وثانيا: اعطاء ضمانات لتطبيقها وعقوبات على من يخرقها وتثقيف عميق ومشبع بها ويجب الانطلاق من انه لا يوجد ديموقراطية مطلقة او مجردة، واضرار المركزية البيروقراطية ونتائجها الكارثية على الاحزاب الشيوعية.

واداة التجديد هي الصراع الايديولوجي، صراع الافكار. ان الايديولوجيا الماركسية اللينينية:ايديولوجيا ثورية مناضلة و لم تكن لتتطور لولا النضال الفكري المثابر الذي شنته ضد جميع الايديولوجيات السابقة والتيارات الفكرية المعادية للاشتراكية العلمية.

والصراع الفكري لا ينفي الانفتاح على الافكار لدى الاطراف الاخرى انفتاحا انتقاديا وتقبل ما هو ايجابي وقيّم. والصراع الفكري مع الاخرين لا ينفي التحالف السياسي معهم. فقد وجدت دائما حركات ثورية تحمل ايديولوجية مثالية وحتى رجعية. اما داخل الحزب الشيوعي فلا يمكن السماح بتعدد الايديولوجيات والحركات بل بتعدد الاراء فقط. فالحزب ليس حلفا او جبهة موحدة. والكلمة الاخيرة لأي صراع داخلي في الحزب الشيوعي هي للفكر الماركسي اللينيني.

ان لجم الصراع الفكري في الحزب يعني تحجر الحزب وبالتالي تفسخه ولعل بعض الكوارث الطبيعية والاجتماعية تحمل معها بعض العزاء. ومن هذا القبيل تفكك عرى الاتحاد السوفيتي كقوة عالمية عظمى مضادة للامبريالية وتفكك حزبه بعد ان كان منبع إلهام ومصدر قوة معنوية لا حد لها للماركسيين والاشتراكيين بعامة ومصدر قوة مادية ايضا للعديد من الانظمة الوطنية والتقدمية وحتى سندا لبعض الدول الامبريالية كفرنسا للوقوف بوجه الهيمنة الامريكية لاتخاذ مواقف مستقلة في هذه المشكلة او تلك. كان ذلك الجانب الايجابي والرئيس وهو الذي افتقدته حركتنا والعالم بعامة وهنا الخسران وهو ما نعنيه بالكارثة. اما الجانب الاخر فهو ان الحياة لاول مرة في تاريخ الحركة الشيوعية منذ ولادتها قد القت على عاتق كل حزب من احزابنا كامل المسؤولية عن مصيرها ومصائر الحركة ككل والطبقة العاملة والانسانية. فإما ان نقبل التحدي الذي تلقيه علينا الحياة ونتحمل العبء بكامل المسؤولية لنواصل السيرورة الثورية وإما ان تتركنا الحياة في زوايا النسيان.. و لم يعد بالامكان الاتكال على مشورة الاشقاء الكبار التي كانت تحظى بقدسية لا تقبل الجدال بل اصبح الجدل طريقا وحيدا للحقيقة

و لم يعد بالامكان الاستغناء بل لم يعد بالامكان اسكاته بكم الافواه. اذ نحن نجتاز فترة جزر هائل في المسيرة الثورية العالمية بل فترة ارتداد كما يحدث بعد كل كارثة تاريخية حيث تسود البلبلة ويرتد كثيرون الى اصولهم ومناشئهم الايديولوجية والقومية وحتى الاثنية والطائفية وينحرف آخرون الى النهليستية والفوضوية والى كل تقليعة في الحياة والسلوك.

ويكثف اعداء الاشتراكية نيرانهم على الشيوعيين وبشماتة الحاقد اللئيم يتساءلون وكأنهم يتفجعون:- ياللضحايا الرهيبة اين ذهبت؟! وكأنها ذهبت سدى و لم تُنوِّر طريق الشعوب في نضالها التحرري ضد الاستعمار والرجعية و لم تحفظ الانسانية من الفناء النووي.. انهم يريدون زعزعة ايمان الشيوعيين بجدوى تضحياتهم اولا وقبل كل شيء فهذا السلاح المعنوي الفتاك خطرا جدا في الفترة الراهنة فترة الشعور بالخيبة والاحباط.. في حين ان سيرورة التقدم الانساني الجارية جعلت البشرية احوج الى الشيوعيين مما كانت عليه في أي وقت مضى باعتبارهم حاملي رسالة الطبقة العاملة:- تحرير الانسان من الاستثمار والاضطهاد. احوج الى الشيوعيين المتمرسين لا بالماركسية اللينينية فقط بل والملمين ايضا باخر المنجزات العلمية والثقافية التي تؤهلهم لان يكونوا طليعين حقا وقد قال لينين ان الشيوعي الذي لا يثقف نفسه بافضل ما انتجه العقل البشري ويكتفي بدراسة الكتب الماركسية انما هو شيوعي بائس.. ان الالمام بالثورة العلمية التكنولوجية ليس ضروريا بالنسبة للاكاديمين وكبار النظريين فقط بل هو ضروري ايضا لاولئك المناضلين المعنيين باثمن مصالح الشغيلة، بخبزها اليومي، بشروط العمل، بالنضال الطبقي ضد الاستغلال سواء في القطاع الرأسمالي الخاص او في القطاع العام. وفي يومنا هذا تقترن الثورة الاشتراكية بالثورة العلمية التكنولوجية فينبغي على الماركسي اللينيني ان يلم بقوانين الثورتين.

ويتطلب التجديد ان ندرس خطتنا العامة: الاستراتيجية والتاكتيك دراسة انتقادية معمقة ونغيرها كما يقتضي الواقع الجاري العالمي والعربي والقطري.

فواقعنا لا ينفصل عن الواقع العالمي بل ان العالم العربي يقع في قلب العالم الذي تزلزله الثورة العلمية التكنولوجية بسبب سيطرة الرأسمالية. ولذلك يجب ان ندرس القوانين الاقتصادية للثورة العلمية التكنولوجية وما تفرضه من تغيير في علاقات الانتاج، دفاعا عن حقوق الشغيلة وانطلاقا من نظريات ماركس الاقتصادية وتطويرها.. كما يجب ان ندرس المخاطر التي تشكلها هذه الثورة في ظل العلاقات الرأسمالية وما تفرضه علينا من تعبئة جهود البشرية جمعاء في منظمات وطنية وعالمية لحماية البشرية والبيئة.. وندرس الافاق الحضارية الجديدة التي تتيحها هذه الثورة لضمان تمتع جميع افراد المجتمع وعموم البشرية بخيراتها.. اننا امام عصر جديد لاتلجه البشرية الا بتظافر جهود كل فرد فيها وفي طليعتها الحركة الشيوعية العالمية المتجددة المدركة لمسؤوليتها ازاء البشرية والتاريخ والمفعمة بالثقة والمعززة بالمعرفة.

ان طريق الخروج من الازمة التي يعانيها شعبنا والشعوب العربية كافة هو طريق النضال من اجل الديموقراطية، الديموقراطية التي ليس بالاقتران مع التطور الرأسمالي المنفلت بل من اجل اكمال الديموقراطية المقترنة بالتوجه الاشتراكي، اذ لم تعد الاشتراكية محض حلم يداعب البشرية المعذبة ولا محض علم، نظرية ومنهج، او غاية تتحقق في مستقبل غير منظور، رغم الكارثة التي اصابتها في السنوات الاخيرة، انها الحتمية التاريخية التي تفرضها الثورة العلمية التكنولوجية كسبيل وحيد لانقاذ البشرية والحضارة من البربرية.

السويد-١٩٩٣/٥/٢٧

مناقشة اولية للبحث

مع الاستاذ هادي العلوي

في رسالة الاستاذ هادي العلوي المؤرخة ١٩٩٣/٧/٢٩، من بيجينغ، كتب بعض الاراء حول الفصل الاول من "وحدة النظرية والمنهج"، المنشور في مجلة "الثقافة الجديدة" جاء فيها:

"اني اجد في الفصل بين المنهج والموقف الاجتماعي بعض الوجاهة، اذا كان هذا ما يقصده الاستاذ مسوح،اعني ان للماركسية مجالين متباينين: المجال الفلسفي/ العلمي، والمجال الاجتماعي. في المجال الاول، تشغل الماركسية موقعها كمنهج علمي لا يرتبط بالضرورة بالموقف الاجتماعي، وقد تبنى طروحاتها من هذا الجانب علماء ومفكرون برجوازيون لا علاقة لهم بالحركة الشيوعية. ومن هؤلاء القس السكوتلندي مونتغمري و.ت. الذي تخصص في تاريخ السيرة النبوية وعالجها من منظور ماركس. وهو برجوازي خالص! ولما كتب مكسيم رودنسون عن تاريخ السيرة قال: "انه تفسير ماركسي لاصل الاسلام" رد عليه مونتغمري: انه ليس ماركسيا وانما استخدم المقولات الماركسية كمنهج للبحث.

"في نفس الوقت، قد يكون المرء شيوعيا دون ان يلتزم بمنهج ماركس الفلسفي، وانما يعتنق مبادئه الشيوعية، أي: الماركسية الاجتماعية. ولايخفى

عليك ان هناك شيوعيين مؤمنين!. احيانا استخدم المنهج العلمي للماركسية للتغطية على الانحراف الطبقي. ان بعض افكار عطية مسوح تدخل في باب كلمة حق يراد بها باطل

فجاء في رسالة زكي خيري الجوابية المؤرخة ١٩٩٣/٨/٣:

في الردة الستوليبينية التي اعقبت هزيمة ثورة (١٩٠٥-١٩٠٧) الروسية، تركز الهجوم على فلسفة ماركس المادية الديالكتيكية. فهنا يكمن الاساس الفكري والروحي للثورة الاشتراكية، وفيه يكمن الخطر على الثورة. وقد شارك في الهجوم بلاشفة من امثال بوكدانف ولوناشارسكي الذي شارك في حكومة لينين كوزير للمعارف بعد ذلك بعشر سنوات، أي يمكن حتى للشيوعي البلشفي ان يرتكب هذه الخطيئة المميتة وقدس الاقداس، ثم يعود الى جادة الصواب او حتى ان يبقى مترددا، او ان يكون عميدا لكاتدرائية كانتربري، كما كان (هيولت جونسون). ولكن هذا لا يجوز للحزب الماركسي اللينيني، لانه عندئذ لا يعود حزبا ماركسيا لينينيا، مؤهلا لدوره في الثورة الاجتماعية. ويوجد اميون يتكلمون نثرا ولا يعلمون انه النثر كما يقول انجلس، أي يوجد علماء يفكرون ديالكتيكيا ولا يدرون انه الديالكتيك المادي، أي انهم ديالكتيكيون عن غير وعي، ويتوصلون الى نتائج صائبة، بيد ان هؤلاء ليسوا افضل العلماء، بل ان العالم الدانيماركي بوهر في الفيزياء الكمية Quantum Phisics اخذ ينتقل في السنين الاخيرة من حياته، من الفلسفة الوضعية Posivitism الى المادية الديالكتيكية. وذهب الى ابعد من ذلك. فان مسيرة التقارب بين العلم والسياسة حملته الى دعوة كل عالم ذري الى ان يكون عالما وسياسيا معا!. ان الثورة العلمية التكنولوجية الجارية سوف تشهد الكثير والكثير من العلماء الذين يدركون الحاجة الماسة في عملهم الى النظرية الماركسية وما كان يعني افرادا سوف يعني زرافاتا، رغم الانتكاسة الحالية في حركتنا. وهذا يجب ان يكون موضع اهتمام الشيوعيين. لم يعد بالامكان فهم منجزات الثورة العلمية التكنولوجية واستيعابها وشرحها من

دون الاستعانة بالمنهج الماركسي و لم يعد بالامكان تحقيق منجزات الثورة العلمية التكنولوجية لصالح الحضارة الانسانية من دون الاستعانة بالسياسة الماركسية. وهذا ما تدعو اليه خيرة العقول في العالم اليوم. يجب ان نرفع اصواتنا بوجه اليائسين المذعورين في صفوفنا الذين صدمتهم الازمة. وكلما كان هؤلاء حسني النية فان ذعرهم يغدواشد قدرة على العدوى. يجب علينا ان نبذل جهدا خاصا الان على الجانب النظري وعلى اعادة الثقة بالماركسية اللينينية.

ان مسوح يختلف عن العلماء البرجوازيين الذين لا يريدون الاشتراكية ولكنهم يستخدمون في بحوثهم منهج ماركس ونظريته العرفانية فقط، ويرفضون نظرية الثورة الاجتماعية، اما الاستاذ مسوح فينفي كل نظرية بما فيها نظرية المعرفة ويسميها "منهج ماركس العرفاني" وهو يجزم بان سر جمود الماركسية و "جمود عقول الماركسيين" سببه اعتبار الماركسيين، الماركسية نظرية وليست منهجا. وعندما يفسر النظرية، لايميز بينها وبين الفرضية، ولا يميز ايضا بينها وبين العقيدة الجامدة. انه لاينقد الماركسيين لانهم حولوا النظرية الى عقيدة جامدة، بل لانهم اعتبروا نظرية ماركس نظرية!! ووحدوا بينها وبين المنهج!! ويبدو للقاريء الحسن الظن انه مصاب بذعر رعابي من مجرد ذكر كلمة "نظرية"

اما ان يستخدم المرء من الماركسية فقط الديالكتيك (المنهج Method والمنطق Logic) دون نظريتها الاجتماعية (قوانين تطور المجتمع، كما يزعم لنفسه الاستاذ عطية مسوح، فقد يتوصل الى نتائج صائبة وايجابية، ولكن الحزب او الطبقة وليس الفرد لن يستطيع تغيير المجتمع المعاصر تغييرا ثوريا مالم يكتشف نظريات ماركس وانجلس ولينين من جديد (ان يخترع البارود من جديد) او ان يعود الى تلك النظريات بعد حذف ما شاخ منها وتجديدها واستكمالها وتطويرها على ضوء الممارسة. ان عطية مسوح ينازلنا بسلاح عفلق القديم ولكن من "داخل الصف الماركسي، كما يزعم. والمصيبة لا

تقف عند هذا الحد فان احزاب المشرق باستثناء حزب خالد بكداش تتبنى وجهات نظره الى هذا الحد او ذاك. ان حركتنا تمر باصعب ازمة في تاريخها ولا مخرج لها منها الا عن طريق الفلسفة، وعن طريق الفلسفة المادية الديالكتيكية والتاريخية توصل ماركس وانجلس الى الشيوعية العلمية والى الاقتصاد الماركسي. وحتى العلوم الطبيعية ليست قادرة على التقدم من دون الفلسفة. وعن هذا الطريق يجب ان نكسب خيرة العقول ونعيد بناء حركتنا الاممية بعد ان نحلل اسباب الكارثة الاقتصادية والسياسية بمنتهى الصدق ورباطة الجأش، أي ان لا نعلق كل الشر على عاتق الشيطان وكل الخير على عاتق الرحمن. ولبراءة ذمتنا امام الناس، كما برأ الراعي نفسه من مسؤولية ضياع الغنم معوضا صاحبها بعلبة لبن بيض بها وجهه. فسوف تجازينا الناس بنفس الجزاء.يجب ان نشرح للناس كيف اصبحنا وعاظ سلاطين بدلا من ان نطلع بدورنا كطليعة ثورية.

زكي خيري

١٩٩٣/٧/٢٩

مقتطفات من كتابات زكي خيري حول

الازمة في الحركة الشيوعية العالمية المعاصرة

ملحوظات

اكد زكي خيري في كتاباته منذ انهيار المنظومة الاشتراكية وفي نقاشاته مع الرفاق والاصدقاء بان الانهيار لم يكن وليد الساعة ولا بفعل العوامل الدولية رغم اهميتها وانما هي عملية تاريخية بعيدة الجذور بدأت عواملها تختمر مع نشوء اول دولة اشتراكية كقانون طبيعي يفرض على الحركة الشيوعية عموما والاحزاب الشيوعية في بلدان المنظومة الاشتراكية ولا سيما الحزب الشيوعي السوفيتي اخذها بالاعتبار، وذلك بتطوير اساليب ووسائل مواجهتها وفقا لتطور الظروف. كما تفرض تطور هذه الاحزاب والحركة الشيوعية عموما نظريا وسياسيا وتنظيميا، وفقا للتطور الذي شهده العالم خلال سبعين عاما ولاسيما الثورة العلمية التكنولوجية، التي كان من شأن الاخذ بها في ظل العلاقات الاقتصادية الاجتماعية الاشتراكية حل الكثير من المشكلات الاساسية التي سببت انهيار المنظومة الاشتراكية وخاصة تلبية الحاجيات الاساسية المتزايدة للجماهير.

وفي مداخلاته العديدة في السيمينارات العلمية والمؤتمرات الدولية والاقليمية للحركة الشيوعية قدم زكي خيري الكثير من الانتقادات والملاحظات البناءة ومنها مداخلته في ندوة برلين العالمية للاحزاب العمالية وحركات التحرر الوطني المنعقد في عام ١٩٨٠ في مجالين اساسيين من مجالات الحركة الشيوعية العالمية وهي: التخلي عن عقد المؤتمرات العالمية

للاحزاب الشيوعية لمواجهة متطلبات العصر في المنعطف التاريخي الخطير الذي تواجهه البشرية. والمواقف غير المبدئية من الانظمة البونابارتية في البلدان المتحررة حديثا. واطلاق تسميتها بالديموقراطية الثورية وامكانية انجازها للثورة الوطنية الديموقراطية وبناء الاشتراكية خلافا لما صاغته الماركسية اللينينية من قواعد عامة في هذا المجال.

و لم يتردد زكي خيري في نقد نفسه وتقبل نقد الاخرين له كما جاء في سياق رسالة له الى الباحث الشجاع هادي العلوي المؤرخة ٢٠/تشرين ثاني /١٩٩٢ وقد تناولت مناقشة الكثير من اسباب انهيار الاتحاد السوفيتي وقضايا فكرية وسياسية راهنة. لاسيما وان التغيير الفريد السرعة لم يكن مجرد نتيجة لضغط "خارجي وادى الى فقدان كل ثقة في أي تحويل كان والى بروز روح الخضوع والندم والولع بالمذاهب اللااجتماعية وموضة الصوفية والاصولية.

واكد زكي خيري في اكثر من مناقشة ومطالعة: ان كل ذلك يتطلب اعادة النظر بجميع القيم وبحث القضايا الاساسية من جديد، والاهتمام من جديد بالنظرية، من ألفبائها، بدراسة الاصول الاولية دراسة نقدية واعية وليس بالاسلوب القديم المتلقي لنصوص لا تقبل المناقشة والتطوير وفقا لمتطلبات العصر ومهامه وبدون ذلك لا يمكن للعناصر الثورية ان تهضم الدروس الغنية بالعبر ولا يمكنها التقدم من جديد بخطى ارسخ ثباتا واوفر وعيا. وليس ثمة ما هو اهم من تظافر جهود جميع الماركسيين الذين يدركون عمق الازمة التي تمر بها الحركة الشيوعية العالمية وضرورة الخروج منها دفاعا عن الاسس النظرية للماركسية اللينينية وعن مبادئها الاساسية التي تشوه من مختلف الجوانب بنشر التأثير البرجوازي بين مختلف "رفاق طريق" الماركسية لاسيما وان وسائل الاعلام الامبريالية الجبارة تنشر الضلالات بكمٍّ هائل ولذا اصبح التشوه الفكري داخل الحركة الشيوعية شديد الخطورة واصبح فهم هذا التشوه والتصدي له بحزم، المهمة التي يفرضها عصرنا على جميع

الماركسيين اللينينين. انطلاقا من ان الماركسية اللينينية ليست عقيدة جامدة، ميتة، مذهبا منتهيا، جاهزا، ثابتا، لايتغير، بل مرشدا حيّا للعمل، لهذا بالضبط كان لابد من ان يؤدي التغير الفريد السرعة في العالم الى البلبلة الفكرية في الحركة الشيوعية العالمية ذلك لان اكثر احزابها كانت قد استوعبت الماركسية اللينينية في المرحلة السابقة باكثر الاشكال تشويها وجمودا. فقد حفظت هذه "الشعارات" او تلك، هذه الاجوبة او تلك على المسائل التاكتيكية دون ان تفهم المقاييس الماركسية لهذه الاجوبة. ان اعادة النظر بجميع القيم في مختلف ميادين الحياة تتطلب اعادة النظر باعم الاسس الفلسفية للماركسية اللينينية واشدها تجردا كما اوصى لينين ابان الازمة التي مر بها البلاشفة بعد فشل ثورة ١٩٠٥

سعاد خيري

مداخلة في ندوة برلين العالمية للاحزاب العمالية وحركات التحرر الوطني

٢٠-٢٤/تشرين الاول/١٩٨٠

اود قبل كل شيء ان اشكر باسم وفد الحزب الشيوعي العراقي اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي الالماني الموحد ورئاسة تحرير مجلة قضايا السلم والاشتراكية، على هذه المبادرة التي تكللت بانعقاد هذا المؤتمر العلمي العالمي للحركة الشيوعية العالمية والديموقراطية الثورية. كما نشكركم على دعوتنا لهذا المؤتمر.

ولكن هنالك ما يحزننا ايضا، فالدولية الاشتراكية تعقد مؤتمرا دوليا سياسيا للاحزاب الاشتراكية والاشتراكية الديموقراطية بين سنة واخرى وتعالج في مؤتمراتها المشاكل العالمية الراهنة من وجهة نظرها الانتهازية والاصلاحية، ولا شك انها تؤثر تأثيرا معينا على الرأي العام العالمي. اما نحن، الحركة الشيوعية العالمية فقد مضت ١٢ سنة على آخر مؤتمر سياسي عالمي لاحزابنا الشيوعية والعمالية، فكيف يمكننا ان نمارس تأثيرنا الثوري على الرأي العام العالمي والعملية الثورية العالمية؟

أما آن الآوان الان لنعقد مؤتمرنا العالمي في هذا الجو العالمي المكهرب؟

نحن نعتقد بضرورة عقد مؤتمر للاحزاب الشيوعية والعمالية في هذا المنعطف الخطير في حركة الشعوب دون ان نخضع لاي ضغط لا يتفق مع قواعد الديموقراطية.

*منذ قيام الامبريالية، بانتهاء القرن الماضي وبداية هذا القرن، وجدت نفسها امام عدوين لدودين هما الطبقة العاملة العالمية والشعوب المضطهدة. وبانتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى وقيام اول دولة اشتراكية غدا التحالف ممكنا بين حركة الطبقة العاملة العالمية والنظام الاشتراكي العالمي الجديد وحركة الشعوب المضطهدة في سبيل التحرر والاستقلال الوطني. وغدا هذا التحالف سياسة رسمية للدولة السوفيتية وللحزب الشيوعي السوفيتي. وتعزز الحلف العالمي المعادي للامبريالية بانهيار الهتلرية وقيام المنظومة الاشتراكية.

*وانتهت المرحلة الاولى لحركة التحرر الوطني بقيام اكثر من تسعين دولة مستقلة منذ الحرب العالمية الثانية وانهيار النظام الكولونيالي القديم. ودخلت الحركة الوطنية في مرحلة جديدة: مرحلة النضال ضد الامبريالية والاستعمار الجديد في سبيل الاستقلال الوطني والتحرر من التبعية للنظام الرأسمالي العالمي.

وانكشفت آفاق جديدة للتحالف بين التيارات الاساسية الثلاثة: المنظومة الاشتراكية وحركة الطبقة العاملة العالمية وحركة التحررالوطني التي غدت ليس فقط حركة شعوب مضطهدة بل ودول مستقلة تتطلع الى النهوض الاجتماعي والاقتصادي.

*وغدا التحالف متعدد الجوانب ويشمل الجوانب السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية. ولتجنب مرحلة التطور الرأسمالي البطيئة والمرهقة للجماهير، اختار بعض هذه الاقطار المتحررة طريق التقدم الاجتماعي السريع والملائم لصالح الكادحين. واصبح التحالف مع حركة الطبقة العاملة العالمية

والمنظومة الاشتراكية ولا سيما الاتحاد السوفيتي ضروريا اكثر من ذي قبل بالنسبة لهذه الاقطار التي رفضت طريق التطور الراسمالي والتي اصبحت بحاجة ماسة الى خبرة الاشتراكية القائمة فعلا، فضلا عن حاجتها لنظرية البناء الاشتراكي. التي زكتها الحياة. ومثل هذه الخبرة لا تستطيع تقديمها الرأسمالية العالمية بالطبع. ولا يمكن حتى تصور انتقال أي قطر جديد الى الاشتراكية بمعزل عن التحالف والتعاون الوثيق مع المنظومة الاشتراكية العالمية ولاسيما الاتحاد السوفيتي

*بيد ان انجاز الثورة الوطنية الديموقراطية ضد الامبريالية والاقطاع حتى نهايتها والانتقال رأسا الى المرحلة الاشتراكية من الثورة، يتوقف في التحليل الاخير على نضوج الشروط الضرورية في داخل القطر المعني بالذات، يعني نضوج الشروط الذاتية فضلا عن الشروط الموضوعية. ويتوقف بالدرجة الرئيسة على مسألة من يضطلع في اخر الامر بالدور القائد لعمليات التحول الاقتصادي الاجتماعي: اهو الطبقة العاملة وطليعتها الماركسية اللينينية، أم هذه الفئة أو تلك من فئات البرجوازية الصغيرة الراديكالية مهما كانت اصالتها او جذريتها.

*قد تتبنى بعض القوى الديموقراطية الثورية، أو الاشتراكية غير البروليتارية قد تتبنى الاشتراكية العلمية كما يجري فعلا في اقطار لم يكن فيها سابقا لا حزب شيوعي ولا حتى بروليتاريا،يحسب لها حساب، بيد ان الشيء الجوهري هو ان الطبقة العاملة الصناعية سواء كانت قديمة نسبيا او حديثة التكوين، أي تكونت بعد الاستقلال الوطني، وطليعتها الماركسية اللينينية، هي، لا غيرها، التي يمكنها ان تقود عملية انجاز الثورة الديموقراطية حتى نهايتها والانتقال الى المرحلة الاشتراكية من الثورة رأسا. وهذا ليس فقط ما تستلزمه القوانين العامة للثورة الإشتراكية التي كشفها ماركس وانجلس ولينين، وما برهنت عليه جميع الثورات الاشتراكية، منذ ثورة اكتوبر ١٩١٧ وحتى الان، بل ما تبرهن عليه الحياة الان كل يوم. وهو ما تعلمناه نحن من

تاريخ العقدين الاخيرين من السنين في البلاد العربية وفي العراق بالذات،وفي اقطار الشرقين الادنى والاوسط والقرن الافريقي و..الخ و..الخ.

فقد امكن للبرجوازية الوطنية ان تحقق تحت قيادتها الاستقلال الوطني وان تقيم دولتها المستقلة كما يمكن للبرجوازية الصغيرة الراديكالية او الديموقراطية الثورية ان تخطو خطوات في طريق انجاز الثورة الديموقراطية وان تحد من ميادين استثمار الرأسمال الخاص وان تؤمم المشاريع التي كان يملكها الرأسمال الاجنبي وان تبني قطاعا عاما ضخما، اذا ما تيسرت لديها الاموال وان تحقق من الاصلاح الزراعي اكثره، وان تعمل ائتلافا سياسيا او جبهة وطنية موحدة مع الحزب الشيوعي المحلي وتبقى مع ذلك بينها وبين الثورة الديموقراطية خطوة او خطوتان واذا هي بمفاجأة دراماتيكية تنكص على اعقابها، وتعود الى الوراء على جميع المحاور. واذا من كنا نتوقع لهم قبل سنوات قلائل بان يتحولوا الى فيديل كاسترو الشرق الادنى او الاوسط او القرن الافريقي، يتحولون بين عشية وضحاها الى مغامرين عسكريين صغار يحسدون الشاه الميت على دور بوليس بترولي للاحتكارات، ويشنون حربا عدوانية على قطر مجاور متورط في صراع صعب مع الامبريالية الامريكية، ويسفكون دماء شعبين متجاورين محبين للسلام، ويدمرون خلال اسابيع ما بناه جيلان متعاقبان بعملهما الخلاق، في العراق وايران.

*ان الحزب الشيوعي العراقي يعتبر: أي حرب تشن لتعديل الحدود الدولية بين دولتين متجاورتين، إنما هي حرب عدوانية مهما كانت الادعاءات الحقوقية. فان لينين قد علمنا بان شن الحروب لتغيير الامر الواقع إنما هو الشوفينية بالذات. ولذا يشجب حزبنا الحرب العدوانية ولاسيما تلك الحرب التي لا يفيد منها سوى الامبريالية الامريكية والتي شنها العراق ضد ايران. ان السلاح الذي استخدم غدرا ضد الجيران المسالمين كان يجب ان يكرس للدفاع عن الوطن او لتحرير الاراضي العربية من الاحتلال الاسرائيلي.

*ان القومية البرجوازية ولاسيما القومية البيتي برجوازية هي كقدم الطين لأخيل، مقتل الديموقراطية الثورية وحتى مقتل الحزب الشيوعي، ومثال ذلك الحزب الشيوعي الصيني الذي مسخ مسخا على يد القوميين البرجوازيين الصغار واطماع الهيمنة والدولة الاعظم. ونفس الاطماع مسخت الدكتاتوريين المغامرين واحزابهم وانظمتهم في الشرقين الادنى والاوسط والقرن الافريقي. وجعلتهم يتنافسون فيما بينهم على دور الدركي للامبريالية والرجعية في تلك المنطقة المشحونة بالتوتر الشديد في عالم اليوم.

*وتحت سلطة البرجوازية البيروقراطية وبقيادتها وادارتها لا يمكن ان يكون القطاع العام الا رأسمالية الدولة البيروقراطية البرجوازية، المكرس لخدمة سلطتها السياسية ولتفريخ الرأسمال الخاص بمقياس هائل وبسرعة فائقة لم يسبق لها مثيل في ظل التطور الكلاسيكي التقليدي" للرأسمالية على اساس الانتاج البضاعي الصغير. وهذا ما يجري امام اعيننا في اقطار اوبك OPEC ولا سيما العراق حيث تنمو بسرعة خارقة طبقة رأسمالية نهمة كالجراد على حساب القطاع العام، ويكرس برامج التنمية لاقامة مجمع عسكري صناعي للعدوان.

*هل يمكن ان نصف بالديموقراطية الثورية أي دولة تعادي الشيوعية وتكافح بلا كلل الحزب الشيوعي المحلي وتزج الحملات العسكرية على القومية المضطهدة داخل حدودها، وتشن حربا عدوانية على جيرانها المتورطين في صراع مع الامبريالية، وتدفع بحركة دول عدم الانحياز الى الحياد المطلق المجرد او الوقوف على بعدين متساويين من الامبريالية وألد اعداء الامبريالية: المنظومة الاشتراكية؟

*لكي تكون الدولة ديموقراطية ثورية حقا وصدقا يجب ان تكون دولة متحالفة مع المنظومة الاشتراكية ولا سيما مع الاتحاد السوفيتي ومع حركة الطبقة العاملة العالمية ومع حركة التحرر الوطني ومناضلا صادقا ضد

الامبريالية وضد الحرب وفي سبيل السلام بين الامم، وان تضع القطاع العام في الاقتصاد الوطني في خدمة الشعب ولتعزيز سلطته السياسية، لالتفريخ الرأسمال الخاص على نطاق واسع وبسرعة محمومة، بل لبناء المقدمات المادية الضرورية للانتقال الى الاشتراكية. وفي قطر تطور فيه وعي البروليتاريا الثورية وتنظيمها الى حد لايجدمعه اعداؤها وسيلة للتعامل معها ومع طليعتها الشيوعية سوى وسيلة المشانق وفصائل الرمي بالرصاص والتعذيب حتى الموت والاختطاف والتسميم والسجون و..الخ

اقول مرة اخرى في قطر كهذا هل يمكن وصف مثل هذه الدولة بالديموقراطية الثورية؟ وهل يمكن قيام دولة ديموقراطية ثورية من دون زعامة البروليتاريا؟ من دون ان يلعب الحزب الشيوعي الدور الرئيس في السلطة السياسية؟

لا لايمكن بل في وضع كهذا لا يوجد بديل ثالث: فإما النكوص الى دكتاتورية البرجوازية البيروقراطية واما السير الى امام الى الدولة الديموقراطية الثورية بزعامة الطبقة العاملة. وبهذا وحده يمكن انجاز الثورة الديموقراطية حتى نهايتها والانتقال رأسا الى المرحلة الاشتراكية من الثورة ولا تزال تعاليم لينين بهذا الشأن جديدة كما كانت في حياته، رغم كل ما جاءت به الحياة من ثروة طائلة في التفاصيل والاشكال والوسائل.

*اي معنى يبقى للتوجه الاشتراكي وللجبهة الوطنية و..الخ مع حرمان الطبقة العاملة وحزبها الثوري المجرب من الديموقراطية السياسية ومن حريته في تنظيم العمل المستقل لجماهير العمال والفلاحين؟ واي اشتراكية ستأتي بغياب الديموقراطية السياسية؟ وبأي وسيلة؟

اجمعت حركة التحرر الوطني العربية في الدورة الثانية لمؤتمر الشعب العربي المنعقد في دمشق في نوفمبر ١٩٧٨ على ضرورة التحالف مع السوفييت وتأمين الديموقراطية السياسية للجماهير الشعبية لتستطيع خوض

النضال الفعال ضد الامبريالية والصهيونية وتحرير الاراضي العربية. بيد ان الديموقراطية السياسية لم تؤمن حتى في الدول التي نقشت اسم الاشتراكية على راياتها.!

*ان مجرد انتصار الثورة الديموقراطية وتحقيق الاستقلال الوطني وتمكن الحزب الطليعي الثوري من قيادة السلطة السياسية، لاتكفي بحد ذاتها للشروع ببناء الاشتراكية. فبناء الاشتراكية يستلزم مسبقا حدا ادنى من التطور الاجتماعي الاقتصادي، فضلا عن زعامة الطبقة العاملة بقيادة حزبها الماركسي اللينيني. ان الطور الاخير من اطوار الثورة الديموقراطية يعني اقامة الدولة الديموقراطية الثورية والسير في طريق الاستقلال الاقتصادي وضمان الاستقلال الوطني وانجاز مهام الثورة الديموقراطية حتى نهايتها وتحويل القطاع العام من رأسمالية الدولة البيروقراطية البرجوازية الى قاعدة للنمط الاجتماعي الاقتصادي للدولة الديموقراطية الثورية. وهو ليس بعد اشتراكية وان لم يعد راسمالية كما يؤكد لينين. بيد ان نمط الدولة الديموقراطية الثورية الاجتماعي الاقتصادي في ظل زعامة الطبقة العاملة هو الحلقة الموصلة رأسا الى الاشتراكية، وهو المقدمة الضرورية والقاعدة الاساسية للانتقال رأسا الى المرحلة الاشتراكية من الثورة.

*ونحن في العراق نجابه مهام الثورة الوطنية الديموقراطية التي يستلزم انتصارها الحاسم قيادة الطبقة العاملة وحزبها الثوري. ونحن نعلم ان هذا الدور القائد لا يفترض افتراضا ولا يوضع كشرط مسبق على الحلفاء، وانما يكتسب من خلال النضال المليء بالتضحيات ومن تطبيق سياسة لينينية خلاقة ملائمة للظروف الملموسة.

رسالة الى هادي العلوي

ستوكهولم-٢/تشرين ثاني/١٩٩٢

جاءت هذه الرسالة استكمالا لمناقشة البحث"وحدة النظرية والمنهج" وتداعياتها، التي جاءت في الاهداء الذي قدمه الاستاذ هادي العلوي.

الاخ المناضل والباحث الشجاع، الرفيق العزيز، هادي العلوي.

بعد التحية القلبية لك وللاخت العزيزة ام حسن، مني ومن سعاد.

جئت الى هنا لاجئا منذ يومين فقط، بعد ان تسلمت في بلد آخر رسالتك المفعمة بانبل المشاعر واصدقها. وقد بدأت منذ اليوم الثالث من وصولي بكتابة هذا الجواب لمصارحتك كما صارحتني، فنحن في عصر المصارحة الكلاسنوست!! اما بشأن زملائنا السابقين من الكتاب التائبين، فقد كانوا منذ البدء من عشاق الثقافة الغربية ولا سيما نمط الحياة الاستهلاكي ولا يخفون في مجالسهم الخاصة تقززهم من الاشتراكية القائمة.. اما في السياسة فكانوا يتأرجحون بين اقصى اليسار واليمين، ولكنهم الان يعيدون النظر حتى في الوطنية، التي غدت طبيعة ثانية للانسان منذ آلاف السنين، ليستخرجوا فتوى بجدوى التعامل مع الدول الامبريالية وشرعيته بل وضرورته. وقد حذفوا من قاموسهم السياسي كلمة "عميل ليحلوا محلها كلمة "معميل" كما افتى ساخرا الشهيد "ابو سعيد" ومنهم من يعترف

بوجود "مصالح تاريخية لبريطانية في العراق!! ومنهم من يتنبأ بعزم الامبريالية على رفع مستوى معيشة شعوبنا وحرياتها الى حد معتدل!! ويرفعون "الديموقراطية" الى المطلق الذي يخضع له كل شيء آخر بما فيه الاستقلال والسيادة الوطنية. وقد رفعوا مشايخ النفط الى مرتبة المرجع الاعلى، وواهب الديموقراطية!! اما فشل البيريسترويكا ومغامرة الكويت والغزو الامريكي، فلم يكن لها سوى دور الحامض الذي يظهر الصورة الكامنة على اللوح السالب، ليكشف هوية بعضهم. في حين تبلبل بعضهم الاخر ولعله سوف يعود الى سواء السبيل.

وانا اختلف معك بشأن الديموقراطية الغربية، فهي كالالهة الاغريقية ذات وجهين، ظاهرة مزدوجة، كاية ظاهرة اخرى في المجتمع الطبقي. انت تظهر وجه واحد لها فتقول: عنها إنها: "الملطخة بدماء شعوب الشرق والساندة لكل الطغاة والجلادين في عالم اليوم" انت تعني بهذه "الديموقراطية الامبريالية" او بالاحرى الديموقراطية التي زيفتها الامبريالية وهي كما تقول "تاتجر باللجوء السياسي والانساني وتجيع ابناءها وترميهم في احضان البطالة وتدفعهم الى احتراف البغاء والشحاذة والاجرام" وهو عين الصواب. بيد ان "للديموقراطية الغربية" وجهها الاخر ايضا، وهي وليدة كفاح الشعوب التي سكبت دماء غزيرة من اجلها منذ القرن السابع عشر، و لم تأتها منحة من سلاطينها، بل انتزعتها منهم انتزاعا وقطعت رؤوس بعض ملوكها من اجلها. وقدس اقداسها: حق الانتخاب العام الشامل المتساوي والمباشر بالاقتراع السري، لم يتحقق الا بعد نضج الحركة العمالية الثورية: الشارتية في بريطانية وكومونة باريس. وعلى اساسها استطاعت الحركة العمالية تحقيق اصلاحات واسعة لحياة شعوبها ولا سيما الاصلاحات الاجتماعية التي اقتبستها من الاشتراكية السوفيتية.

اما ما يريده بعض مثقفينا فهو جرعة معتدلة من الديموقراطية الغربية، تكفي لوضعهم في سدة الحكم، تمنحها اياهم الدول الامبريالية بعد ان تطرد

صدام حسين!! وهم على استعداد لمقايضة هذه البضاعة بالنفط بثلث او ربع سعر الكلفة للبرميل في امريكا، جزاء وفاقا...

وفي تصريح لاحد اقطاب المعارضة صدر مؤخرا: نصح فيه الدول الامبريالية بان من مصلحتها هي بالذات ان تحترم استقلال القرار للمعارضة العراقية!! وهذا النصح يذكرنا بالنصائح التي اعتاد رؤوساء الدول العربية تقديمها بين آونة واخرى الى امريكا بان تعتمد على العرب لا على اسرائيل!! على ضحية النهب الامبريالي لا على شركاء الامبريالية الصغار!! يا لها من حصافة سياسية!!

إن شعب العراق سينتزع الديموقراطية من حكامه عنوة واقتدارا. واليائسون من قدرة الشعب هم وحدهم الذين يرتضون أي بديل آخر مهما كان عن حكم صدام حسين. وينتظرون الفرج من الامبريالية. فقد ضخموا صدام الى حد الخرافة حتى فقدوا الامل بزحزحته!!

انت تحقد حقدا مقدسا على هذا الدكتاتور ولكن الحقد مهما كان مقدسا ليس دليلا مرشدا في السياسة..لذا تستشكل من التحالف معه مؤقتا حتى طرد الغزاة الايرانين من البلاد. وكما تعلم لم يستشكل ماو تسي تونغ حتى من التحالف مع "عملاء امريكا وبريطانية ضد البابان وعملائها" عندما غزت هذه ارض الصين. ولعلك تذكر ان الامين تحالف مع العيارين للدفاع عن بغداد ضد جيش المأمون الذي حاصرها. وفي ايام زمان استشكل احد الاخيار من امر الصلاة وراء إمام كان لقيطا فاستفتى احد الشيوخ في الامر فافتى له الشيخ قائلا: صحيح انه لقيط ولكنه الان إمام جماعة تأتم به في صلاتها ما دام إماما مفروضا عليها وللضرورات احكام!وهذه الجماعة التي تأتم بصدام حسين انما هي قطاع من اهل العراق من مختلف الطبقات لها مصلحة في غزو ايران ونهب الكويت وترى في "الفرهود" مجدا، ويوجد امثالها بين شعوب العالم المتمدن. والاهم من ذلك هو ان صدام حسين عبأ

جيشا من جميع رجال العراق القادرين على حمل السلاح. وعندما غزا الايرانيون ارض العراق، منذ تموز ١٩٨٢، بعد ان سلم صدام حسين بشروط الامم المتحدة لوقف الحرب، ورفضتها ايران، كان الشعب العراقي المسلح يدافع عن ارض وطنه، تحت قيادة صدام، وهذا امر املته الظروف، و لم يكن من اختيارنا، فما العمل؟ وكان ذلك قبل البيريسترويكا"

كان رأيي المعروف جيدا لدى اللجنة المركزية: لا ان نلقي بسلاحنا عند قدمي صدام بل أن "نحول البندقية من كتف الى كتف" كما يقول الفرنسيون، أي ان نستخدم السلاح ضد الغزاة الايرانيين حتى يجلوا عن ارضنا، بالتحالف مع الجيش العراقي، اي مع الشعب المسلح عهدذاك وإن كان الجيش تحت قيادة الدكتاتور من نمط صدام حسين، ولو كان يضم في صفوفه فريقا من السلابين والنهابين. وفي المؤتمر الوطني الرابع لحزبنا كنت اكثر حذرا في العرض، إذ اقترحت على المؤتمرين اصدار قرار باسم المؤتمر يحي الشعب العراقي على بسالته في الدفاع عن ارض الوطن. قوبل كلامي بوجوم ثم توالى الخطباء العسكريتاريون على شن حملة شعواء ضد موقفي. وبالطبع لم يكن بالامكان التصدي للغزاة الاجانب واستمرار الحرب الاهلية ضد القوات المسلحة للدولة العراقية في نفس الوقت. وإن كنت نادما الان على شيء فهو انني لم اقدم على نشر رأيي على الملأ الا بعد سقوط الفاو بيد العدو والهجوم الكبير على البصرة. ولو ان المعارضة العراقية المسلحة كفت عن مقاتلة الجيش العراقي خلال الغزو الايراني لارض العراق، لما استطاع صدام حسين استخدام الجيش بتلك السهولة في عملية "الانفال" وتشتيت شمل الشعب الكردي كما شتت الاتراك شمل الشعب الارمني قبل سبعين سنة ونيف. ان استمرار المعارضة في محاربة الجيش المدافع عن ارض الوطن، قد اوغر صدره وجعله اداة طيعة بيد صدام فانقض عليها بكل ضراوة. فور انتهاء الحرب فلم يترك صدام حسين مجالا لوثبة جديدة تقوض الدكتاتورية السوداء.

صحيح ان القائد الاعلى للجيش كان صدام حسين نفسه ولكن الجنود بقيادة ضباط وطنيين كانوا يقاتلون لصد الغزاة عن ارض الوطن. كان منظرونا الوحيدوا الجانب يصرون على ان الجيش اداة قمع للدفاع عن النظام ليس إلا، وان محض التصدي للعدو الخارجي يعني التحالف مع "السرسري" على حد تعبيرك. ولكن الذي جرى فعلا هو ان حزبنا واصل الحرب الاهلية ضد الجيش العراقي الذي تصدى للغزو الايراني، وقد صمد بوجه هذا الغزو، في حين كانت احزاب المعارضة الكردية تنسق قواتها مع الغزاة الايرانيين جنبا الى جنب لتقاتل الجيش العراقي، المدافع عن الوطن. لقد عجزوا عن التمييز بين صدام حسين والجيش المؤلف من مليون جندي والذي يضم مع الجيش الشعبي جميع الرجال القادرين على حمل السلاح، فشلوا في التمييز بين الجلاد وبين الشعب المسلح المدافع عن ارض الوطن. واعتبر بعض المنظرين ان الوطن هو حكم الطبقات الاربعة وليس الارض! وقالوا ان الجيش ليس سوى اداة للدفاع عن النظام القائم وتجاهلوا الجانب الاخر للجيش وهو انه الى جانب كونه اداة الدفاع عن النظام القائم ايا كان، انما هو ايضا وفي نفس الوقت، وفي حالات محددة على وجه التعيين اداة للدفاع عن الوطن. هذه الظاهرة المزدوجة، أي الجيش هي كظاهرة الديموقراطية البرجوازية في ازدواجيتها، وكأي ظاهرة في المجتمع الطبقي. وهناك مقولة للينين: ما من ظاهرة لا يمكن ان تنقلب الى نقيضها ما ان تتوفر شروط ذلك..

انا شجبت بقوة الغزو العراقي لايران وبنفس القوة شجبت الغزو الايراني للعراق. وان خطأ الاخرين هو تشخيص الظاهرة او الحدث من خلال رأس النظام، من خلال طبيعة الفرد، القائد مهما كان خطره وشأنه، او دوره الفعلي في الاحداث.

وكنت قد شجبت غزو صدام للكويت فور وقوعه في "طريق الشعب" باعتباره "مغامرة طائشة" وادنت الوحدة عن طريق الاكراه، طريق بسمارك، وانا كنت في صباي من طلاب مثل هذه الوحدة البسماركية. اما وقد

غدوت ماركسيا لينينيا فقد وعيت ان الوحدة حق ديموقراطي من حقوق كل شعب عربي، وفي غضون هذا القرن تكون شعب جديد في الكويت جله من المهاجرين العرب ويناهز تعداده المليونين، ومن حقه وحده ان يقرر التوحد مع أي شعب عربي آخر.

لقد اظهرت كارثة غزو الكويت كم هي ضارة ومضللة دعوة العفلقيين للوحدة "الاندماجية" القسرية وكم هي مدمرة. كما اظهرت بطلان حريتهم واشتراكيتهم. و لم يكن صدام حسين سوى المنفذ لوصايا عفلق ومبلغها الى نهايتها المنطقية.

وفي كلمة بعثت بها الى "الثقافة الجديدة" اشرت الى الاسباب الاقتصادية للحرب، ولكن المجلة لم تنشرها رغم مرور عشرين شهرا عليها ولعلها لا تزال تدور في ادراج الروتين..ان جوهر الحرب الامبريالية على العراق هو برميل النفط. فسعر الكلفة لبرميل النفط في الولايات المتحدة كانت آنذاك تساوي سعر البيع لثلاث براميل من نفط الخليج! وفي اللقاء الاخير قبل الغزو الامريكي بين طارق عزيز وبيكر، طرح الاخير على الاول في جدول العمل نقطة هي:"السياسة البترولية" كانت هذه النقطة غريبة جدا في عشية الغزو الامبريالي للعراق، الذي تبرقع ببرقع "تحرير الكويت" ولحد الان لم اطلع على تفاصيل المحادثات بين الوزيرين والمحضر بصدد النقطة الخاصة بالسياسة البترولية. ولكن الامر لا يحتاج الى ذكاء، فغرض امريكا هو ان يكون لها الكلمة الاخيرة او القول الفصل في تحديد سعر البرميل في الخليج العربي، للحد من طموحات العراق وايران لفرض اسعار تتناسب مع سعر البرميل في الولايات المتحدة' ويتحاشى اصدقاء امريكا وبريطانيا الجدد بحث هذه المسألة 'كما يتحاشى الشيطان النار، كما يقال.

ان جريمة صدام حسين هو انه: بدلا من ان يدعم المعارضة الديموقراطية في الكويت بان يجعل العراق مصدر اشعاع كما كان بين ١٤/تموز/١٩٥٨-

١٤/تموز/١٩٥٩، جعله بعبعا ومصدر رعب لجميع الجيران، وبذلك رسخ حكم شيوخ النفط في الخليج والانظمة الاستبدادية في المنطقة، واعطى فرصة ذهبية لبوش للخروج من عقدة هزيمة امريكا على يد فيتنام ولبريطانيا تاتچر فرصة الانتقام من ثورة ١٤/ تموز/١٩٥٨

لقد خذل صدام حسين المعارضة الديموقراطية في بلدان الخليج مرتين خلال العقد الاخير: الاولى في حربه على ايران لحماية شيوخ النفط من رعاياهم الديموقراطيين والشيعة، ككلب حراسة للانظمة القبلية الاقطاعية بدلا من الدفاع عن شعوبهم ضد ظلم الشيوخ وخطر التوسع الايراني معا، ومرة اخرى في غزوه للكويت.

لم يعد الجيش العراقي كما كان عليه، فقد تقلص الى ٤٠٠،٠٠٠رجل وضابط وحل صدام حسين الجيش الشعبي، واغلب الضباط "عرب سنيون" حسب التصنيف الامبريالي. ولكنهم ليسوا محض سوط عذاب وتنكيل بيد صدام، عارية كما ارادها صانعها..انهم في الاغلب الاعم ضباط وطنيون عراقيون. والشبح الذي يرعبهم ويلقي بهم في احضان صدام حسين هو الخوف على كيان العراق كدولة مستقلة، الخوف من تمزيقه الى دويلات طائفية. فهل عملت المعارضة على تبديد هذه المخاوف؟!! اشك في ذلك والدليل هو ما جرى في انتفاضة آذار ١٩٩١ والدعوة الطائفية الانفصالية وغير ذلك..

ان الحرب غدت مستحيلة على قطر كالعراق ضد دولة كامريكا، بفضل التكنولوجيا الجديدة وعليه فان تعويلك على امساك الجيش العراقي بزمام الامور خلال غزو الكويت لم يكن واقعيا، مع الاسف!..ان النكبة اسوأ مما حدث بعدعام(١٢٥٨ م). وقد اصبح التعويل على الحرب الاهلية لعبة خطرة على كيان العراق وحياة شعبه. وكل تغيير فاصل سريع مأمون يتوقف على موقف الجيش في بغداد وعلى الدعم الجماهيري في قلب بغداد كما جرى في ١٤/تموز/١٩٥٨.

ان كردستان لا تستطيع تحرير بغداد بل تستطيع فقط دعمها في الوقت المناسب. ولن تستطيع ضمان مستقبلها بالذات ما لم تتحرر بغداد، مهما كانت "الضمانات الخارجية..

ان ما توصل اليه المكتب السياسي لحزبنا: من ان الوضع الدولي الراهن هو الوضع الانسب لتحرير كردستان لعلى طرفي نقيض مع الواقع! وهو حكم مبني كما يبدو على الثقة بان الامبريالية الامريكية صادقة في تحرير كردستان، فهي الان القوة الوحيدة المهيمنة في العالم بلا منازع، بعد ان انكفأت روسيا يلتسن.

ان حكمك علينا نحن الحرس الحزبي القديم "بالارتباط التقليدي بالسياسة السوفيتية واعتبار كل ما يصدر عن الاتحاد السوفيتي صحيحا بدون مناقشة"، ان هذا الحكم مصيب الى حد بعيد عندما لا يتعلق الامر بشؤوننا الخاصة. إذ كنا ننحي باللائمة على الاشقاء الشيوعيين السوفييت كلما ثبطوا عزائمنا دون القيام بمغامرة انعزالية ونلقي عليهم المسؤولية، فيما بيننا فقط، كلما فشلنا في تنفيذ أي مغامرة، كما كان يفعل الزعماء العرب لدى فشل مغامراتهم وفضلا عن ذلك وفي الحكم على ستالين في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي، انحاز المكتب السياسي لحزبنا الى المقال الصيني "تحيا اللينينية" المشهورإذ اعتبرنا تشخيصه لستالين موضوعيا الى حد ابعد مما ذهب اليه تقرير خروشوف الى المؤتمر العشرين واكثر منه انصافا للرجل. والاهم من ذلك اعتبارنا اياه اصوب فيما يتعلق بحتمية الحرب في يومنا ذاك. بيد اننا سرعان ما ادركنا خطأنا وركبنا الشعور بالاثم كما ركب اسلافنا الثوريين الذين دعوا الحسين ليبايعوه وعندما جاء ذبحوه وقدموا رأسه الى يزيد ثم ندموا ليجلدوا انفسهم زهاء ١٤ قرنا، لعل ابو الشهداء يغفر لهم غدرهم بابنه!! ونحن عاقبنا انفسنا بانفسنا بعقوبات انضباطية: بالتنحية عن المراكز القيادية. وفوق ذلك حرمنا على انفسنا مناقشة الخطة العامة للحركة الشيوعية العالمية، متنازلين عن ذلك للحزب الشيوعي السوفيتي باعتباره

الحزب الوحيد القادر على رسم هذه الخطة على وجه الحق والصواب.. وبذلك لم نتصرف كتلامذة شيوعيين عليهم ان يجادلوا اساتذتهم ليتبين لهم الحق من الباطل كما فعل تلامذة افلاطون مع استاذهم بل تصرفنا كتلامذة منفعلين متلقين. ولعل من مبررات خطيئتنا فقر تكويننا النظري وانعدام التقاليد الديموقراطية لدينا والنقص في تجربتنا السياسية وثقافتنا ولا سيما في الحقل الدولي. وقد تكون هذه كلها محض اعذار لتبرير ضعف الشعور بالمسؤولية ازاء الحركة الشيوعية العالمية.

ومع الاسف لا اتفق معك في ان غورباشوف والبيريسترويكا فاسدين من البيضة، بل اتفق مع ليغاشوف الذي كان يده اليسرى، وهو من الشيوعيين الذين يصنفهم الاعلام الغربي الامبريالي، بلا مزاح:"المحافظين" ويعني بهم الشيوعيين الذين لا يزالون يتمسكون بمباديء الشيوعية العلمية والاممية البروليتارية والوطنية والانسانية الصادقة، ويسعدني ان اكون محافظا بهذا المدلول وحتى الموت!!

ولعلك قد قرأت حديث مراسل "صوت الكويت" مع ليغاشوف، وقد نشرت خلاصته مجلتنا "الثقافة الجديدة" (العدد ٢٤٩). وليغاشوف يصر على: ان البريسترويكا جاءت كحركة تجديد للدولة السوفيتية التي هي بحاجة ماسة الى التجديد، من حين لاخر، شأن أي دولة اخرى..وان غورباشوف لم يكن سيئا منذ البدء بل انه اراد التجديد وقد انزلق الى الهاوية بالتدريج. ويستعمل المراسل العربي كلمة "ترقى"من الترقي، يعني التدرج Evolution وربما يعني انه تدرج من مصلح طوباوي فقير بالنظرية الى تصفوي عمل على تحويل الحزب الشيوعي السوفيتي الى حزب اشتراكي ديموقراطي وتحويل المجتمع السوفيتي من الاشتراكية الدولانية الى الرأسمالية الحرة.

ولا يمكن تجاهل الدور السلبي الخاص الذي لعبه الفرد في تفاقم الازمة الراهنة، يعني دور غورباشوف شخصيا. ولكننا نبتعد عن الواقع ونخسر

دروس التجربة التي كلفتنا غاليا جدا اذا ما القينا بعبء الازمة كلها على او حتى بالدور الرئيس فيها على كاهل شخص واحد مهما كان بارزا او استثنائيا، سواء كان غورباشوف او صدام حسين، مع الفارق العظيم بينهما. كان غورباشوف قد انتخب سكرتيرا عاما للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي، في اجتماعها الكامل في نيسان/١٩٨٥، بالاقتراع السري، و لم يفرضه احد على الحزب او لجنته المركزية سوى انه قدم على سواه من مخضرمي الحزب خلافا للتقاليد المرعية، بفتوى من الشيوعي المخضرم والوطني الكبير غروميكو، وزير خارجية الاتحاد السوفيتي لاكثر من ربع قرن.

و لم يكن غورباشوف، القائد الوحيد الذي خذل الحزب وتخلى عن الماركسية اللينينية. فقد ظهر من اعضاء المكتب السياسي ايضا من هم اسوأ منه، من امثال يلتسن، بونابارت روسيا اليوم، وكرافاجوك رئيس اوكرانيا وقد عملا يدا بيد لتقويض الاتحاد السوفيتي، استرضاء للامبريالية الامريكية، ولتقويض الاشتراكية واحياء الرأسمالية. فكيف وصل هؤلاء المرتدون الى قمة الحزب والسلطة؟!

لابد من ان شيئا من الفساد قد دب الى المجتمع السوفيتي حتى امتد الى رأس الحزب الجبار الذي قاد اعظم ثورة اجتماعية في التاريخ العالمي.وعلى حد تعبير شكسبير على لسان هملت: ثمة شيء فاسد في دولة الدانمارك"(There is some thing rotten in the state of Danimark). وما لم نبحث عن جذور الفساد بالعمق فستضيع علينا اثمن تجربة في تاريخ العالم الاجتماعي.

سألني احد اعضاء حزبنا المعروفين عن انطباعي عن البريسترويكا، باديء ذي بدء، فقلت له: اشعر بفقر نظري في احاديث غورباشوف. بيد انني والحق يقال كنت متفائلا وحتى واثقا ان الحزب الذي اسسه لينين سيتغلب على الازمة كما تغلب على ازمات سبقتها: كظاهرة الانتهازية اليمينية في

بداية القرن الجاري، ثم فترة الردة الاستوليبينية، التي اعقبت فشل الثورة الروسية الاولى وانتشار التحريفية والتجريبية والريبية، التي انتابت حتى المباديء الاساسية للماركسية، والتي تورط في اوحالها مثقفون فطاحل، بالمقياس العالمي، من امثال البلشفي لونشارسكي والاديب البروليتاري العظيم مكسيم غوركي، اللذين راحا يبحثان عن الله. وتغلب الحزب العظيم على ازمة الحرب العالمية الاولى والحرب الاهلية وحرب التدخل والتطويق الامبريالي ثم الانقسام في الحزب الذي ادى الى تصفية المعارضة تصفية دموية سفكت خلالها دماء غزيرة على يد ستالين، ثم ازمة الغزو الهتلري والقضاء على الهتلرية الذي بذلت من اجله دماء الملايين من اعضاء الحزب الشيوعي السوفييتي، هذا الحزب الذي نقل بلاده في فترة تاريخية وجيزة الى ثاني دولة صناعية في العالم وجعلها دولة عالمية عظمى لا تضاهيها الا امريكا. فالحزب الذي خرج منتصرا من كل هذه الازمات جدير ان يخرج من الازمة الراهنة التي ساعد غورباشوف على تفاقمها مهما كانت نواياه. لقد قابل البريسترويكا بعض القادة الشيوعيين البارزين من امثال السكرتير العام للحزب الشيوعي الامريكي الرفيق غاس هول، بالشك واعتبروها تحريفية واعتبروا دعوتها مماثلة لدعوة كل ما سبقها من حركات تحريفية التي كانت تتذرع بالتجديد. لم اقرأ ما كتبوه بالضبط بل سمعت به من الافواه ناهيك عن دراسته. و لم اجد بنفسي الجرأة لابداء رأي التزم به في قضية لم يتيسر لي دراستها.

ان البريسترويكا تطوير لتعاليم لينين في التعايش السلمي بين النظامين الاجتماعيين العالميين المتناقضين، بعد ان اصبحت الحرب بينهما من المحال، وكذلك رآها كثرة من الشيوعيين آنذاك ولا سيما في الغرب.

ان العامل الذاتي الذي دفعني الى تقبل البريسترويكا هو: والحق يقال، مدلولها الديموقراطي، وبصراحة، المصارحة والتعددية.. والحال كنت انا نفسي اعاني من التطويق جراء الدفاع عن رأيي الخاص بصدد "الدفاع عن الوطن

اثناء الغزو الايراني للعراق، ضد الاكثرية، في حين كان الحق الوحيد المعترف به للعضو المخالف: "الاحتفاظ برأيه" اما نصيب المبشر برأيه فهو العزل والحجروسوف ابقى من المدافعين عن هذا الوجه من البريسترويكا الذي يعني حق كل رفيق في التبشير برأيه مدافعا عنه ساعيا لاقناع الاخرين به وليس بمجرد "الاحتفاظ بالرأي" وكان هذا هو الجانب المشرق من البيريسترويكا التي حررت الاذهان من جمود طويل، من المدلول الستاليني للانضباط، الانضباط العسكري لا البروليتاري الواعي. اما الجانب المعتم من البيريسترويكا فهو بث الاوهام بصدد الامبريالية لمحض عجزها عن شن حرب نووية، هو تعليقها الامال على ان الامبريالية سوف توفر للشعوب قسطا من الديموقراطية، وترفع مستوى معيشتها الى مستوى الفقراء في المتروبول، او انها سوف تتخلى عن الطغاة الحاكمين في الاطراف وبذلك تتخلى عن نهب ثرواتها الطبيعية وادمغتها النادرة ورخص اياديها العاملة او عن استيفاء فوائدها الربوية منها. وهذا الجانب من البيريسترويكا الذي يجب النضال ضده بدأب وبمنتهى الصرامة وبدون هوادة.

وقد ادت البيريسترويكا في الاتحاد السوفيتي على يد غورباشوف الى تفكك الاتحاد والانفصالية وزوال القوة العظمى المتصدية للامبريالية الامريكية والطغيان الامريكي على العالم والى قيام البونابارتية الروسية وتحريم الحزب الشيوعي والى تفاقم الازمة الاقتصادية، من الركود الى الانهيار(انخفاض الانتاج الصناعي ٣٠٪، والحيواني ٤٠٪) كما جاء في حديث ليغاشوف، والى تضخم بلغ (٠ ١٪) في هذه السنة فقط.

بيد انه لايجوز التمويه على الحقيقة، يجب عدم تبرئة ساحة الحزب الشيوعي الذي حكم البلاد سبعين سنة ونيف من كل مسؤولية على قاعدة كل الخير من الرحمن وكل الشر من الشيطان، فا لله﴿هو الذي خلق كل نفس واهمها فجورها وتقواها﴾. فكل حزب وكل شخص وهو على سدة السلطان يتعرض للفساد إن عاجلا ام اجلا. وقد برهنت الحياة ان حزب

لينين لا يستثنى من هذه القاعدة. وقد قال لينين: ان الحياة تعاقب على الاخطاء بقسوة. وهذا ما نراه الان رأي العين. لقد جعل ستالين من اسم تروتسكي مرادفا لاسم الشيطان الرجيم، ولذا استميحك عذرا إذ استشهد بقوله في العشرينات: ان كل الاحزاب الثورية دب فيها الفساد وهي في سدة الحكم. دون ان يستثني حزب الشيوعيين الروس الذين نظموا الثورة الاشتراكية العظمى. واعتبر كلامه هذا هرطقة ومن البينات على ادانته بالمروق والارتداد. وها نحن نرى ذلك باعيننا. ولكن يجب الا يعتبر ذلك قدرا محتوما، فالديموقراطية مصل واق ضد الفساد، ولا يفسد الديموقراطية نفسها الا التجريدوالاطلاق، واعتبارها فوق الطبقات، كما يفعل المثقفون الان وقد تبنوا الديموقراطية باعتبارها الموضة الشائعة، او الدواء الشافي لكل الامراض. فالديموقراطية نفسها يجب ان تخضع لمصلحة الشعب: العمال والفلاحين، ولا توجد ديموقراطية لا طبقية. واذا كانت البرجوازية هي الطبقة المهيمنة فانها تستخدم الديموقراطية كواسطة لنهب ثمرات كدح الكادحين.

وفي رأي الرفيق مارشييه السكرتير العام للحزب الشيوعي الفرنسي: ان البيريسترويكا فشلت لانها اولا جاءت متأخرة وثانيا-وهذا هو الاهم في رأيي- لانها جاءت بمعزل عن اوسع الجماهير. والحقيقة هي ان خطيئة غورباشوف المميتة واحدى كبائره هي انه اعتمد على المثقفين المعجبين بنمط الحياة الغربية والثقافة الغربية الى حد الهوس. وفي كثرة من المناسبات اشاد غورباشوف نفسه بالحضارة الامريكية. ولم يكن في ذلك بأس لو انه نظر اليها بعين الماركسي النقادة. وقد وضع ثقته بسذاجة، بلغت حد البلاهة، بتاتچر كاهنة الامبريالية وألدّ اعداء الاشتراكية بعد چرچل في هذا القرن. وترتكز بلاهة غورباشوف على الوهم الذي يساوره وهو انه نبي جديد يستطيع ان يكون واعظا ومرشدا للاشتراكيين والامبرياليين في نفس الوقت، وان يهدي الجميع الى سواء السبيل، وانه اذا فاز بثقة قادة الامبريالية وحقق الانفراج الدولي ونهاية الحرب الباردة فسوف يكسب ثقة جميع الشعوب ولا

سيما الشعب السوفيتي، الذي انهكته الحرب الباردة كما لم تنهكه الحروب الساخنة المدمرة، لانها استمرت اربعين سنة ونيف.

وقد انتهت الحرب الباردة فعلا ولكن على حساب الانظمة الاشتراكية وهذا هو بالذات الهدف الاستراتيجي للحرب الباردة التي اثارتها الامبريالية.

يزعم "الشيوعيون التائبون ان من اخطاء الحزب الشيوعي السوفيتي خصوصا والحركة الشيوعية العالمية عموما، بل شر اخطائهم:انهم نقلوا النضال الطبقي الى ميدان العلاقات الدولية. ويتجاهلون ان الحرب الباردة التي اعلنها جرجل في خطابه المشؤوم في جامعة فلتون في الولايات المتحدة والتي تبنتها الامبريالية كانت حربا على الاشتراكية وتتبجح الامبريالية بتزعمها لها منذ ولادة الاشتراكية في روسيا بعد الحرب العالمية الاولى. إذ شنت عليها حربا صليبية ساخنة اشتركت فيها ١٤ دولة رأسمالية منها الولايات المتحدة. ولكنها منيت بالفشل. فقال جرجل متحسرا:"قلت لهم،يعني الامبرياليين، اسحقوا بيوضها قبل ان تفقس وتنتشر في العالم"

ويقول الصحفي المصري المعروف، محمد حسنين هيكل، الذي لا يستطيع احد ان يتهمه بالانحياز "للشيوعية الدولية"كما يسميها هو، في كتابه الاخير عن حرب الخليج الثانية: "ان الرئيس كندي في ولايته (١٩٦١-١٩٦٥) هو الذي حول الحرب الباردة الى سباق التسلح الجنوني، كانجع وسيلة لتقويض النظم الاشتراكية من الداخل، اذ يضطرها الى تخصيص جل الموارد للدفاع بدلا من رفع مستوى معيشة شعوبها."

وذلك ما اكده ليغاشوف في حديثه الذي اشرت اليه انفا. ولو اهمل الاتحاد السوفيتي سباق التسلح لا نقضت عليه امريكا بصواريخها المحيطة به من جميع الجهات. فالامبريالية هي التي اقحمت الاصطراع الطبقي والايديولوجي في ميدان العلاقات الدولية، وليس الحزب الشيوعي السوفيتي او الحركة

الشيوعية العالمية. وسباق التسلح هو الذي ادى الى الازمة الاقتصادية وهذه هي الاساس المادي لأزمة الاشتراكية القائمة.

ولكن بالرغم من سباق التسلح كان بالامكان تفادي الازمة لانها ليست من قبيل الازمات الدورية الملازمة للرأسمالية، بل من طبيعة اخرى. فقد بقي الاتحاد السوفيتي يتوسع افقيا خلال ستة عقود في حين يفرض التطور التوسع العمودي بل وادخال الثورة العلمية التكنولوجية لتحقيق الانتاجية الاعلى على النطاق العالمي وفقا للقانون الاقتصادي الرئيس للاشتراكية الذي من شأنه تحقيق المهمة الاقتصادية للاشتراكية وهي تلبية الحاجات الملحة والمتنامية للجماهير. وجرى تجاوز لآلية السوق لااعتقادهم خلافا لما اكده لينين بان الاشتراكية واقتصاد السوق ضدان لا يجتمعان في حين ان السوق خدمت التشكيلة العبودية ثم الاقطاعية ثم الرأسمالية وبإمكانها تحت ضوابط الدولة ان تخدم التشكيلة الاشتراكية، دون ان تحولها الى الرأسمالية بل لتفرض رقابة المستهلك على المنتج. فلو صنع معمل للاحذية شحنة كاملة من الاحذية المصنوعة لقدم واحدة دون الاخرى:اليمين دون اليسار مثلا، لرفض المستهلكون شراءها وبقيت عبئا على كاهل منتجها وليس على الدولة. وهذه ليس فرضية بيزنطية، وقعت فعلا امثال هذا الحادث في الاتحاد السوفيتي. ولكن السوق كأداة رقابة للمستهلك على المنتج ليس هو ما تريده الحكومات التي حلت محل الحكومات "الشيوعية" بل تريد السوق الرأسمالية التي تعمل كقوة عمياء من قوى الطبيعة لا تضبطها ضوابط، واعادة تمليك الثروة العامة Privatisation على طريقة ماركريت تاتچر. ولن يستطيعوا سلب الشعب الروسي مكاسب ثورة اكتوبر مالم يسحقوا مقاومة الشعب بالعنف كما تنبأ لينين. وليس الشعب الروسي اقل تمسكا من الشعوب الاسيوية بالاشتراكية والشيوعية. وليست الاشتراكية السوائية هي ما تصبو اليه الشعوب بعد كل هذا التطور التاريخي الحضاري بل اشتراكية من كل حسب طاقته ولكل حسب عمله. وقد فشلت الاشتراكية السوائية في الصين وقد رأيتها بعيني في

جولتي في الصين في ١٩٥٨-١٩٥٩، حيث زرت الكومونات الشعبية ورأيت الفلاحين يتناولون الرز في قصاع كالجنود ورأيت المثقفين من ذوي الشهادات العالية يحملون افرازات الانسان والحيوان لتخصيب الارض. و لم يكن بالامكان في القرن العشرين ان يبقى نمط الحياة هذا ازاء النمط الاستهلاكي، في البلدان الرأسمالية المتطورة. وليس البديل لهذا النمط تمليك ثروات الشعب واطلاق العنان للرأسمالية.

ان الانسان تواق بطبيعته الى تحسين ظروف عمله ومعيشته باستمرار ويرفض كل نظام يعجز عن تحقيق ذلك. وهكذا فعلت شعوب الاتحاد السوفيتي التي لم تدافع عن النظام السابق وهي غير راضية عن النظام الراهن لانه لم يأت بجديد بل زاد في الطين بلة، وهي لم ترفض الاشتراكية بل الجمود على اسلوب ولى زمانه وغدا معوقا للتطور.

لك ولأمّ حسن اطيب التمنيات مني ومن ام يحيى.

المخلص زكي خيري

ستوكهولم ٢/تشرين ثاني /١٩٩٢

اطروحات الماركسية اللينينية ليست عقيدة جامدة انها منهج للعمل

ملاحظة

بين اوراق زكي خيري القليلة الباقية بالنسبة لما انتجه، اشراقات مرشدة في زحمة المخاطر المحدقة والضلالات المهيمنة المدعمة بوسائل الاعلام الامبريالية الجبارة، استطاع بحميته الشيوعية وحرصه الانساني على صيانة وتطوير الماركسية اللينينية باعتبارها الاداة الاساسية لتحرير البشرية من الاستغلال والاضطهاد ووسيلتها لبناء حضارة انسانية حقا، استطاع ان يشحذ همته رغم تردي صحته التي اوهنتها السنين والبعد عن مصدر الهام كل انسان: الوطن والشعب، ان يصيغ هذه الاطروحات التي اضفتها الى مجموعة نتاجات زكي خيري الفكرية وذلك: اولا: لانها تنتمي اليها وثانيا، لانها من آخر نتاجاته، وثالثا، لاهميتها الحيوية وراهنيتها.. فقد اكد دائما ان الحلقة المركزية للخروج من الازمة الراهنة في الحركة الشيوعية هو الاسترشاد بالماركسية اللينينية من اجل الدفاع عنها و تطويرها و في تحليل اسباب الازمة والتوصل الى سبل الخروج منها. فيقول:

"انا شيوعي مخضرم ومقتنع بشيوعيتي، ارفض التخلي عن الماركسية اللينينية، كما ارفض عدم تطويرها على السواء، ومع التجديد على اساسها بقناعة وثقة. انني ضد التبسيطيين الذين يزعمون:ان الخيانة وحدها هي المسؤولة عن الانهيار. إذ لم يكن الخونة يوما اقوى من الشعب الواعي والتنظيم الثوري.

كما رفض زكي خيري التباكي على التضحيات الرهيبة التي قدمها الشيوعيون منذ تأسيس حركتهم، والزعم بانها راحت ادراج الرياح، مؤكدا بان ما من حركة اجتماعية اخرى على مرّ العصور والاجيال قدمت ما قدمته الحركة الشيوعية من تضحيات بفضل روحها الثورية الواعية وعدالة قضيتها، ولكنها لم تذهب سدى.. فقد انارت السبيل للبشرية التقدمية، وحتى افدح اخطائها قدمت للانسانية تجربة لا تقدر بثمن، على طريق التقدم. ولم يشهد تاريخ العالم حركة اجتماعية بلا انتكاسات وكوارث،والنهوض من الكبوة رهن بايماننا الواعي بعدالة قضيتنا ووعينا الطبقي متجسدا بالماركسية اللينينية وروحها الثورية، والتجديد الدائب.

لاتخلو كل نتاجات زكي خيري من ومضات فكرية رائعة، سعيت الى ضمها في الجزء الثاني من مذكراته الذي اوصاني باعداده، بعد تعثر نشر الجزء الاول منها واهتمامه بقضايا الساعة على المستوى الوطني والعالمي ولا سيما الازمة الراهنة في الحركة الشيوعية العالمية.

سعاد خيري

١٩٩٦/٣/١

الماركسية اللينينية ليس عقيدة جامدة

انها منهج للعمل

١

في بداية عصر الامبريالية استنتج لينين حتمية الحروب الامبريالية. وقد برهنت هذه النظرية صدقها في حربين عالميتين. ولكن التطور اللاحق خلفها وراءه. فان وجود الاسلحة النووية جعل الحروب الكبرى من المستحيلات، وحلت محلها نظرية امكانية التعايش السلمي حتى بين الانظمة الاجتماعية المتناقضة. وغدا التشبث بحتمية الحروب الكبرى، جمودا عقائديا.

٢

ان تجديد الماركسية اللينينية يعني تشذيبها من النظريات والاستنتاجات التي خلفها التطور الى الوراء، واستخلاص استنتاجات جديدة على ضؤ التطورات الاخيرة. وكثيرا ما اكد الشيوعيون المجددون ان الامانة للماركسية تعني الدأب على تطويرها. ولكن هذا لا يعني البتة القاء التراث الماركسي في البحر والبحث عن ايديولوجيا جديدة او نبذ كل ايديولوجيا. فهذا لا يعني سوى الخضوع للايديولوجية البرجوازية بل وحتى الامبريالية.

تقول تاتشر كاهنة الامبريالية المعاصرة وخليفة تشرشل، في محاربة الاشتراكية "ان الشيوعية قد ماتت" ويردد قولها آخرون من الايديولوجيين

المعادين للشيوعية ومنهم غلاة الصهاينة. وقد اتاح لهم اعلان امنيتهم هذه الارتداد الاخير في جمهوريات الاتحاد السوفيتي واوربا الشرقية، الامر الذي كشف عن اعمق ازمة تعرضت لها الماركسية منذ الثورة الروسية الاولى (١٩٠٥- ١٩٠٧) عندما دعا لينين الماركسيين الى الدفاع عن مباديء الماركسية وأسسها. وهذه المباديء والاسس نفسها اصبحت الان موضوع للجدل. ويرى حتى بعض الشيوعيين، ولا سيما الايطاليين: انه لم يبقى من الماركسية في قيد الحياة سوى الدياليكتيك. ويزيد شيوعيون آخرون: انه لم يبق من الشيوعية سوى المنهج" (الطريقة). ومنهم من يفسر المنهج بكونه القطب الاخر الذي يقابل النظرية، ويميزه عنها بكونه يتجدد على الدوام في حين ان النظرية تتقادم وتتجمد وتبلى. وينسون ان النظرية الماركسية حية، لم يفت أوانها بفعل التطور التاريخي، هي منهج، هي مرشد للعمل كما سماها مؤسسوها، و لم يصنفوا تعاليمهم الى صنفين او قطبين، النظرية مقابل المنهج!! وقد ادعى الشعبوي الروسي خصم الماركسية: ان ماركس لم يؤلف حتى مؤلف واحد عن المادية التاريخية" فرد عليه لينين: وفي أي مؤلف من مؤلفات ماركس لم يتناول المادية التاريخية؟!

ويمكن وضع المسألة على وجه آخر: أي من مكونات الماركسية الثلاث: الفلسفة والاقتصاد السياسي والشيوعية العلمية ليس منهجا للعمل؟ فلو حصرنا المنهج بالدياليكتيك لامكن حصره بثلاث قوانين: الكم والكيف، وحدة الضدين واصطراعهما، نفي النفي. وقد استعارها ماركس وانجلس من هيغل فهل يمكن تحويلها الى شفرة لاستخدامها في جهاز الكومبيوتر واستخدامها لحل المشاكل؟! وماذا نفعل باقتصاد ماركس؟ هل نكتب الاقتصاد السياسي من جديد، وعلى أي الاسس؟ وما هو مصير فائض القيمة والنضال الطبقي مع استمرار علاقات الانتاج الرأسمالية؟ هل نتخلى عن الفلسفة المادية؟ هل نتخلى عنها جميعا ونبدع ما يحل محلها؟ او هل نوفق بينها وبين ما يقابلها في المعسكر الاخر؟ او نحافظ عليها بدون تغيير؟ او نجددها؟

انا شيوعي مخضرم ومقتنع بشيوعيتي، ارفض التخلي عنها كما ارفض عدم التغيير على السواء، ومع التجديد بقناعة وثقة.

٣

انا اؤمن بالفلسفة المادية، أي بسرمدية المادة، أي بلغة مبسطة: ان المادة بلا بداية ولا نهاية، لا تستحدث ولا تفنى، أي لا تنتهى الى لا شيء. وانا مع ذلك احترم كل من ينفي ذلك نفيا باتا ومستعد للاصغاء الى حججه بقلب مفتوح وتفهم واجادله بصراحة ومودة. وانا ارفض الانتقائية، أي الجمع بين المفاهيم المادية ونقيضه، باختيار شيء من هنا وشيء من هناك، ولا اريد ان اتساوم، مثلما فعل البائع اليهودي المتجول مع راهب الدير: ان يكون نصف مسيحي مقابل المبيت لليلة واحدة في الدير، فاخذ من الايمان المسيحي ان يسوع ابن مريم و لم يأخذ بانه ابن الله.. وهلم جرا...فهل اكون منغلقا او عقائديا جامدا؟ فليكن....

وفي تاريخ الحزب الشيوعي العراقي الذي انتميت اليه منذ العام الاول لتأسيسه لا توجد اية حالة تورط فيها الحزب في صراع مع المتدينين من أي دين كانوا وفي اية عقيدة من عقائدهم او طقس من طقوسهم.

ولا استطيع ان اتصور كيف يمكن ايجاد فلسفة جديدة تجمع بين المادية والمثالية أو لا هي مادية ولا مثالية مع رفض الانتقائية في الوقت ذاته...

٤

انا مع دراسة الاقتصاد السياسي الرأسمالي دراسة جدية معمقة. وقد افنى ماركس خمسة عشر عاما من احسن سنوات عمره في دراسة الاقتصاد السياسي البرجوازي واحاط به من جميع جوانبه. ولولا تلك الدراسة واستخدام المنطق الدياليكتيكي لما استطاع الكشف عن قوانين الاقتصاد الرأسمالي. وبفضل تلك الدراسة المعمقة لا يزال كتابه "رأس المال" حيا رغم مرور قرن وربع قرن على تأليفه. واضاف اليه لينين دراسته لرأسمالية الدولة الاحتكارية بعد دراسة ما كتبه

الاقتصاديون البرجوازيون. ولكن رأسمالية الدولة الاحتكارية لم تعد كما كانت عليه تماما في حياة لينين. و لم يتابع الماركسيون بعد لينين بنفس النظرة الثاقبة التي كان لينين يتابع بها تطور الاقتصاد الرأسمالي.

وفي حين كان الاقتصادي الماركسي "فارغا" يتنبأ بعد الحرب العالمية الثانية ببضع سنوات بأزمة اقتصادية كبرى كالتي حلت بالاقتصاد الرأسمالي العالمي في (١٩٢٩-١٩٣٦) كانت الرأسمالية تكيف نفسها للوضع العالمي الجديد واخذت الدولة الرأسمالية تمارس اكثر فاكثر تدخلها المباشر في الاقتصاد مستفيدة من تجربة الدولة الاشتراكية. وبدلا من ازمة كساد كبرى جرت ازمات دورية خفيفة خلال (١٥) سنة تلت الحرب وشاهد الاقتصاد الرأسمالي خلالها رواجا لا سابق له. ومع ان الازمات الدورية والازمة العامة للرأسمالية لم تنته مرة والى الابد، فان الراسمالية كانت تجد لنفسها مخرجا في كل مرة. و لم يكن ذلك الا تأكيدا للمقولة الماركسية اللينينية وهي: ان النظام الراسمالي لن يسقط من تلقاء ذاته، بل لن يسقط ما لم تكن هناك قوة قادرة وعازمة على اسقاطه. ومع ذلك بقي بعض الماركسيين يعول على انفجار النظام الراسمالي وانهياره تلقائيا وبسبب ازماته ليس الا

و لم تتخذ الامبريالية موقف الدفاع تجاه الاتحاد السوفيتي وحلفائه بل شنت الحرب الباردة وسباق التسلح، ووضعت نصب عينيها احتمالين معا: فإما ان تتفوق تفوقا ساحقا حتى تحين فرصة لانزال الضربة الساحقة بالعدو كما كانت تسميه رسميا، او ان تنهكه اقتصاديا ليتقوض ذاتيا. وقد تحقق الاحتمال الثاني. لان الدول الاشتراكية كرست زبدة اقتصادها وكفاءاتها للدفاع الى حد تجاوز الحد الضروري.

٥

والانكى من ذلك ان البلدان الرأسمالية المتطورة ادخلت الثورة العلمية التكنولوجية قبل البلدان الاشتراكية. وضاعفت انتاجية العمل بحيث اصبح

بامكانها تلبية طلبات سباق التسلح وفي الوقت نفسه تلبية طلبات "المجتمع الاستهلاكي وبذلك رجحت كفة الرأسمالية في السباق العالمي مع الاشتراكية. فتساقطت انظمة الحكم الشيوعية في اواخر الثمانينيات، بسرعة درامية وتفكك الاتحاد السوفيتي الذي اجتاز الامتحانات الرهيبة وآخرها الحرب العالمية الثانية. واهتز النظام في الصين بعنف وإن لم يسقط. وما قاله الزعيم الكوبي، فيديل كاسترو:"ان الامبريالية لم تكن قادرة على تدمير الاتحاد السوفيتي، بل انه دمر نفسه بنفسه." قول صحيح إجمالا فان وجود شخص تجريبي مثل ميخائيل غورباشوف على رأس السلطة وحركة التغيير، او التصحيح، في الاتحاد السوفيتي، كان عاملا معجلا لتفكك الاتحاد السوفيتي وانهيار سلطة الحزب الشيوعي والحزب نفسه، الذي كان اقوى حزب في العالم طوال قرن.

بيد انني ضد التبسيطيين الذين يزعمون ان "الخيانة" وحدها هي المسؤولة عن الانهيار. إذ لم يكن الخونة يوما ما اقوى من الجماعة المخلصة ومن الهيئات والتنظيمات الفاعلة. وخطر التبسيط هو انه يسدل الستار على النواقص والاخطاء ويعوق عملية التصحيح. فالثورة العلمية التكنولوجية والمجتمع الاستهلاكي مكنت الرأسمالية ليس فقط من كسب اكثرية نسبية من سكان بلدانها وعزلهم عن النضال الثوري في سبيل الاشتراكية، بل مكنتها ايضا عن طريق قوة المثل من اثارة السخط لدى الاكثرية النسبية الميسورة في البلدان الاشتراكية على الاشتراكية القائمة، فضلا عن سباق التسلح والتهديد بحرب الابادة الشاملة.

زكي خيري

١٩٩٥/٢/٥

مقولات فلسفية

ترجمات من القاموس الفلسفي

استند زكي خيري في بحثه وحدة النظرية والمنهج على **مصدر** واحد كان يحمله معه في اسفاره وهو: القاموس الفلسفي(Dictionary of Philosophy Edited by I.Frolov Progress Publishers1984وبدأ بترجمة بعض المصطلحات التي يراها مهمة الى العربية. وجدت من الضروري ادراجها في هذا الكتاب توخيا لفائدة القراء اولا وتحقيقا لرغبة زكي خيري في نشرها ومحاولة لجمع الجزء الضئيل المتوفر من جهود زكي خيري في خدمة الحركة الثورية العراقية والعالمية والفكر الانساني. علماً أنها لم تكن ترجمة حرفية، و لم تكن وفق تسلسل ابجدي.

الايديولوجيا Ideology:

النظريات والافكار السياسية والحقوقية والاخلاقية والجمالية والدينية والفلسفية. والايديولوجيا جزء من البنية الفوقية، الصرح العلوي (راجع الاساس والبنية الفوقية) وباعتبارها هذا، فإنها بالنتيجة تعكس العلاقات الاقتصادية. وفي مجتمع الطبقات المتناحرة يتطابق النضال الايديولوجي مع النضال الطبقي. وقد تكون الايديولوجيا علمية او غير علمية، وانعكاسا للوجود صادقا او زائفا. ان مصالح الطبقات الرجعية تنشيء ايديولوجيا زائفة،

ومصالح الطبقات التقدمية، الثورية تعمل على صياغة ايديولوجيا علمية. والماركسية -اللينينية، ايديولوجيا علمية صادقة، تعبر عن المصالح الحيوية للطبقة العاملة والغالبية العظمى من البشر، الساعية وراء السلام والحرية والتقدم. وقد انتشرت في الخمسينات والستينات من هذا القرن بين الفلاسفة البرجوازيين اراء تقول بتعارض الايديولوجيا مع المنهج العلمي، نحو الوجود، واعتبروا الايديولوجيا شيئا ذاتيا يعبر عن مصالح بعض الجماعات والاحزاب و...الخ. ومن هنا جاء سعيهم نحو اعطاء صفة الاطلاق للفارق بين الايديولوجيا والعلم، ونحو المعارضة بين الايديولوجيا والعلم، ومن هنا محاولاتهم من اجل تحقيق"نزع الايديولوجيا" عن الفلسفة والعلم. وقد اختزلت تلك المحاولات في الواقع الى عزل العلم والفلسفة عن النضال الطبقي، واضعاف دور الماركسية-اللينينية، الايديولوجيا الوحيدة التي تقدم تحليلا للوجود علميا وموضوعيا صارما. وفي السبعينات بينما واصل الايديولوجيون البرجوازيون متابعة هذا الغرض فانهم اخذوا يضعون مهمة "اعادة الايديولوجيا" بمعارضة الماركسية بايديولوجيتهم "الجديدة" (راجع Reideologisation).

ان تطور الايديولوجيا يقرره في النهاية الاقتصاد، ولكن للايديولوجيا استقلالا نسبيا معينا. وهذا يجد تعبيره بخاصة في استحالة تفسير محتوى الايديولوجيا بالاقتصاد مباشرة وبوجود تفاوت معين بين التطور الاقتصادي والايديولوجي. وفضلا عن ذلك يتجلى الاستقلال النسبي للايديولوجيا الى حد ابعد في عمل القوانين الداخلية للتطور الايديولوجي وايضا في المجالات الايديولوجية الابعد عن الاساس الاقتصادي. ويعود الاستقلال النسبي للايديولوجيا الى واقع ان التقدم الايديولوجي يتأثر بعدد من العوامل خارج الاقتصاد: كالاستمرار الداخلي في تطور الايديولوجيا، والدور الشخصي للايديولوجيين فرادى، والتأثير المتبادل بين مختلف صور الايديولوجيا.

المفهوم العالمي World outlook:

نظام من المباديء والاراء والقناعات التي تقرر وجهة النشاط والموقف من الوجود بالنسبة للفرد او الجماعة الاجتماعية او الطبقة او المجتمع ككل.ويتكون المنظور العالمي من عناصر تعود الى جميع صور الوعي الاجتماعي. ويشمل وجهات نظر الانسان الفلسفية والعلمية والسياسية والاخلاقية والجمالية واحيانا الدينية ايضا. ان المعرفة العلمية، التي تكون جزءا من المفهوم العالمي، تعطي الانسان او جماعة من الناس وجهة عملية مباشرة، في محيطهم الواقعي الاجتماعي والطبيعي. وتنظم المباديء والقواعد الاخلاقية العلاقات المتبادلة بين الناس وسلوكهم، وسوية مع نظراتهم الجمالية تقرر موقفهم من البيئة، وصور النشاط واغراضه ونتائجه. وتكون النظرات والقناعات الفلسفية اساس نظام المفهوم العالمي باكمله: الفلسفة هي التي تشرح نظريا مجموع معطيات العلم والممارسة، وتعبر عنها بالصورة الاكثر واقعية وموضوعية، وهي المقررة تاريخيا للوجود. ان القضية المركزية للمفهوم العالمي هي نفس المسألة الاساسية بالفلسفة (المادية أم المثالية). ووفقا على حلها يوجد نمطان رئيسيان للمفهوم العالمي: مادي ومثالي. ان المفهوم العالمي انعكاس للوجود الاجتماعي. وفي المجتمع الطبقي يتخذ طابعا طبقيا، ومفهوم الطبقة الحاكمة هو المهيمن عادة. وفي المجتمع الاشتراكي يحتفظ المفهوم العالمي بطابعه الطبقي جراء النضال الطبقي الجاري على الصعيد الدولي. ولكن في هذا المجتمع يبدأ مفهوم الطبقة العاملة بتمثيل المجتمع ويصبح مفهوم المجتمع ككل. وتغدو الماركسية اللينينية اساسه النظري والايديولوجي والسياسي. وفي الاشتراكية يكون غرس المفهوم العالمي الشيوعي الواعي والهادف احد المهام الرئيسة للحزب الشيوعي والدولة. ويزعم الايديولوجيون البرجوازيون والتحريفيون ان النظام الاجتماعي الشيوعي يؤدي الى التوحيد الكامل للمفهوم العالمي. ان هيمنة المفهوم العالمي الشيوعي في ظل الاشتراكية يعني فقط قبول الايديولوجيا الماركسية اللينينية العلمية من قبل جميع اعضاء

المجتمع. وعلى افتراض الوحدة الايديولوجية غير المشروطة يقتضي المفهوم العالمي في المجتمع الاشتراكي ضمنا، ثراء المميزات الفردية ويحققها في مقوماته ما دام المفهوم العالمي للفرد، المعبر عن تجربة حياته المعينة، ليس محض شعرة في المفهوم العالمي للمجتمع.ان حضور المعرفة والقناعة كليهما ضروري لتمييز المفهوم العالمي من حيث الكيف.ان القناعات المؤسسة على المعرفة هي منبع نشاط الشخص او الجماعة او الطبقة. وهذا يفسر الاهمية التي يعلقها المجتمع الاشتراكي على تحويل المباديء الاساسية للمفهوم العالمي الماركسي الى قناعات في سيرورة التربية الشيوعية للفرد.

الطبقة العاملة:

احدى الطبقات الرئيسة في المجتمع الحديث، القوة الدافعة الاساسية للسيرورة الثورية في الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية والشيوعية. والطبقة العاملة في كنف الرأسمالية: طبقة من العمال المستخدمين المحرومين من وسائل الانتاج ويبيعون قدرتهم العاملة ليستثمرها الراسماليون، اما في كنف الاشتراكية: فهي طبقة من العمال في مشاريع الدولة الاشتراكية، والقوة القائدة في المجتمع. وقد برهنت الماركسية اللينينية على ان الرسالة التاريخية للطبقة العاملة المتحالفة مع جميع الشغيلة الاخرين هي الاطاحة بالرأسمالية بالوسائل الثورية وبناء مجتمع شيوعي لا طبقي. وهذا الدور للطبقة العاملة ينشأ من مكانها الموضوعي في نظام الانتاج الاجتماعي الواسع النطاق الذي يؤدي تطوره الى نمو اعداد الطبقة العاملة وتنظيمها وتضامنها ويساعدها على فهم مصالحها هي بالذات الامر الذي يعني ان الطبقة العاملة تتحول من "طبقة بذاتها الى"طبقة لذاتها" ان نشاط طليعتها_الحزب السياسي الثوري- الذي يضمن دمج الاشتراكية مع حركة العمال، ان هذا النشاط يلعب دورا حاسما في تكوين الطبقة العاملة وفي تطورها التنظيمي والسياسي والايديولوجي. ان النضال الطبقي للطبقة العاملة ضد البرجوازية يمر عبر مراحل شتى: من

المقاومة السلبية الى النضال السياسي الواعي، ويتخذ اشكالا اقتصادية وسياسية وايديولوجية. ورغم تصورات الايديولوجيين البرجوازيين ودعاة الاصلاحية والتحريفية الذين يدعون ان البروليتاريا إما انها آخذة بالزوال، تمتصها الطبقة الوسطى او انها تغدو من مكملات النظام الراسمالي، وتتخلى عن دورها الثوري، رغم هذه الادعاءات فإن صفوف الطبقة العاملة تكبر، وقوتها وهيبتها تتضاعف في النضال من اجل مصالح الشعب العامل والمصالح الحقيقية للامة.

ان نمو الانتاج ولاسيما في كنف الثورة العلمية التكنولوجية والمكاسب الاجتماعية للطبقة العاملة تؤدي الى رفع مستوى حاجاتها ومصالحها وثقافتها ونشاطها. وتمارس الطبقة العاملة تأثيرا مضطردا على تطور المجتمع. ان التقدم التكنولوجي والعلمي ينوع تركيب الطبقة العاملة ويضم الى صفوفها الى جانب العمال الصناعيين والزراعيين جمهرة ملاكات التوزيع والخدمات، واهل الثقافة"الانتليجينتسيا" وفي البلدان الراسمالية تناضل الطبقة العاملة من اجل التغيرات الديموقراطية في الاقتصاد والسياسة، الامر الذي يستدعي بالحاح الوحدة بين شتى اجزاء الطبقة العاملة، الى تركيز جهود الشعب العامل جميعا في النضال المضاد للاحتكارات العالمية ولتقوية التضامن الاممي البروليتاري.

وحدة النظرية والمنهج والمنطق:

ان الشرح المادي القائم على اساس المبدأ القائل بتطابق الدياليكتيك والمنطق ونظرية المعرفة، يحول دون اختزال قانون وحدة الاضداد وصراعها الى "مجموع من الامثلة" بل يقدمه باعتباره قانونا عاما من قوانين الوجود والتفكير. ان شمولية القانون تعين اساس وظائفه المنهجية في سيرورة المعرفة (انظر قانون وحدة الاضداد وصراعها)

ان الدياليكتيك العلمي يوحد في وحدة عضوية القوانين التي تتحكم بالوجود وقوانين المعرفة، وكلاهما متماثل ولا يختلفان إلا في الشكل. وبناء

عليه ليس الدياليكتيك المادي تعليما بشأن الوجود فقط بل تعليما عرفانيا ايضا، انه منطق يعتبر الفكر والادراك كليهما على السواء في حالة الصيرورة والتطور.

النظرية والممارسة:

النظرية ثمرة الانتاج الروحي الاجتماعي التي تصوغ اغراض النشاط وتحدد وسائط تحقيقها.

وتعتبر الماركسية الممارسة نشاط الطبقات الثوري والمحول، وجميع صور النشاط الاجتماعي الاخرى التي تحقق التغييرات في العالم.

ربط الحركة العملية الجماهيرية الهادفة الى الغاء المجتمع البرجوازي، ربطها بالنظرية التقدمية الماركسية التي تكتشف قوانين المجتمع الموضوعية وتقود نشاط الحزب البروليتاري نحو هدف محقق علميا- الشيوعية.

لايمكن بناء الاشتراكية والشيوعية بدون اقامة صلات عضوية بين النظرية والتطبيق، وبدون تعميم نظري متواصل لتجربة الجماهير العملية، بدون ادخال النظرية العلمية التقدمية على الممارسة.

المادية الديالكتيكية (Dialectic Materialism):

المادية الديالكتيكية:المفهوم العالمي الفلسفي العلمي، احد مكونات المذهب الماركسي وقد اسسها ماركس وانجلس في اربعينات القرن التاسع عشر وطورها لينين وغيره من الماركسيين.

كان ظهورها ثورة في تاريخ الفلسفة. ولكن هذه الثورة احتوت ايضا جميع العناصر التقدمية الراقية التي احرزها الفكر البشري واستيعابها استيعابا انتقاديا.

و لم يقم ماركس وانجلس بمحض استعارة تعليم الماديين القدامى وديالكتيك المثاليين ليقوما بمجرد تركيبهما، بل انهما انطلقا من آخر

اكتشافات العلوم الطبيعية ومن التجربة التاريخية للبشرية. وبرهنا على ان المادية لا تكون علمية وصادقة إلا اذا كانت ديالكتيكية، ولا يكون الديالكتيك بدوره علميا حقا وصادقا ما لم يكن ماديا.

ظهرت المادية الديالكتيكية كجميعة Synthesis تحيط بالتركيب المعقد من الظواهر الطبيعية وظواهر المجتمع البشري والفكر، وتوحد منهجها الفلسفي لتفسير الواقع وتحليله مع فكرة إعادة بناء العالم بناء ثوريا عمليا. وهذه الحقيقة، اعادة البناء، تميز المادية الديالكتيكية عن الفلسفة القديمة التي تقتصر بالجوهر على تفسير العالم. وهذه الحقيقة انعكاس للجذور الطبقية للفلسفة الماركسية، بوصفها المفهوم العالمي لاصدق الطبقات الثورية، الطبقة العاملة، ورسالتها التاريخية، هدم النظام الاجتماعي القائم على استثمار الانسان للانسان، وبناء المجتمع الشيوعي الخالي من الطبقات.

ان موضوع البحث المعين للمادية الديالكتيكية، يشتمل على اعم القوانين التي تتحكم بتطور الطبيعة والمجتمع والفكر، والمباديء العامة للعالم الموضوعي واسسه، وانعكاسها على الفكر البشري، الذي يعطينا النهج العلمي الصائب في بحث الظواهر والسيرورات، والطريقة لشرح الواقع ومعرفته واعادة بنائه.

ان المادية الديالكتيكية توحد تعاليم الوجود للعالم الموضوعي مع تعاليم انعكاسه على العقل البشري وبهذا تكون نظرية المعرفة والمنطق جميعا.

ان المادية الديالكتيكية، هي الاساس الفلسفي لبرنامج الحزب الشيوعي وتاكتيكه وجميع اوجه نشاطه.

هيغل Hegel:

حلل هيغل قوانين الديالكتيك ومقولاته الرئيسة. وقد برهن على صواب الطريحة Thesis القائلة بوحدة الديالكتيك والمنطق ونظرية المعرفة. وطور

لاول مرة في تاريخ الفكر نظاما للمنطق الديالكتيكي. واسهم اسهاما قيما، استثنائيا في نظرية المعرفة.

النظرية Theory:

كاصطلاح لها دلالات مختلفة تميزها عن الفرضية، وعن الممارسة. منظومة من المعرفة الموثوقة المعممة التي تعطي صورة تامة لنظاميات الواقع واساسياته. فهي مضادة للفرضية(المعرفة غير المحققة) وتختلف عن الممارسة، بما انها تعكس الواقع وتعيد انتاجه روحيا وذهنيا. وفي الوقت نفسه ترتبط ارتباطا لا انفصام له بالواقع الذي يطرح مشاكل ملحة على المعرفة ويتطلب منها حلها. ولهذا السبب فان الممارسة جزء لا يتجزأ من كل نظرية. ان النظريات العلمية الطبيعية والاجتماعية جميعا، تحددها الشروط التاريخية التي تنشأ فيها، كما يحددها التقدم التاريخي للتكنولوجيا والتجارب والعلم، وكذلك النظام الاجتماعي السائد، الذي قد يلائم ابتداع النظريات العلمية او بالعكس يعوقه. وهكذا فقط في منتصف القرن التاسع عشر، بظهور الماركسية، تحولت النظريات في علم الاجتماع الى نظريات علمية لقوانين التطور الاجتماعي. وتلعب النظريات دورا كبيرا في تطور المعرفة العلمية وفي تحويل المجتمع بوسائل ثورية. وهكذا في حين تظهر النظرية كتعميم للنشاط المعرفي ونتائج الممارسة فانها تفضي الى تحويل الطبيعة والحياة الاجتماعية. ان معيار صدق النظرية هو الممارسة.

النظرية والممارسة Theory and practice:

مقولتان فلسفيتان تعنيان الوجهين الروحي والمادي لنشاط الناس التاريخي الاجتماعي: معرفة الطبيعة والمجتمع وتحويلهما.ان النظرية ثمرة الانتاج الروحي الاجتماعي التي تصوغ اهداف النشاط وتحدد وسائل تحقيقها. وهذه الثمرة (النظرية) توجد بشكل مفاهيم تتطور لمواضيع النشاط البشري. وتتميز الفلسفة الماركسية عن الفلسفة التجريبية والوضعية في اعتبارها الممارسة وليس

التجربة الذاتية الحسية للفرد، بل باعتبارها اياها نشاط الناس لابقاء المجتمع في الوجود وتطويره، وفوق كل شيء باعتبارها عملية الانتاج المادي الموضوعية التي هي اساس الحياة الانسانية. وكذلك باعتبارها نشاط الطبقات الثوري والمحول، وجميع صور النشاط الاجتماعي التي تحقق التغيرات في العالم. ان الممارسة هي اساس المعرفة ومعيار الحقيقة.

ان دور النظرية يزداد باطراد وليس فقط في عملية الانتاج. ان حركة الممارسة الجماهيرية الهادفة الى الغاء النظام الرأسمالي ترتبط مع النظرية التقدمية الماركسية التي تكشف عن قوانين المجتمع الموضوعية، وتوجه نشاط الحزب البروليتاري نحو بلوغ الهدف المتحقق علميا: الشيوعية. ولا يمكن بناء الاشتراكية والشيوعية من دون تثبيت روابط عضوية بين النظرية والممارسة، من دون تعميم نظري دؤوب لتجربة الجماهير العملية، من دون ادخال النظرية العلمية التقدمية في التطبيق.

نظرية المعرفة Epistomology:

فرع من الفلسفة معني بالعلاقة بين الذات والموضوع في عملية النشاط المعرفي، وعلاقة المعرفة بالواقع، وامكانية الانسان ان يعرف العالم، ومعيار الحقيقة، وصحة المعرفة. وتدرس نظرية المعرفة جوهر موقف الانسان العرفاني من العالم. وبناء عليه فان كل نظرية للمعرفة تنطلق حتما من حل محدد للمسألة الاساسية في الفلسفة: اولوية المادة أم الفكر، امكان معرفة العالم أم عدمها و...الخ.وهذا يعني ان جميع انماط النظرية العرفانية تنقسم إما الى مادية او مثالية. ان الدياليكتيك المادي تعليم فلسفي بشأن المعرفة والمنطق الماركسي ونظرية المعرفة الماركسية. وهكذا فان قوانين الدياليكتيك المادي ومقولاته، وهي انعكاس لقوانين التطور الشاملة للعالم الموضوعي، هي الصور الشاملة للفكر المدرك. وعليه فان النظرية العرفانية للماركسية تتميز عن الابستمولوجيا الماضية ليس فقط بانها قوانين خاصة للمعرفة، بل بانها ثمرة

تاريخ معرفة العالم. وهذا يعني في الفلسفة الماركسية بان العلاقة بين الوعي والمادة، بين الفكري والمادي، هو معيار المعرفة الصحيحة، العلاقة بين الحسي والمنطقي و...الخ. وتدرس على اساس المنهج الديالكتيكي الماركسي، وبالعلاقة الوثقى بالمادية التاريخية، التي تتيح الكشف عن جوهر معرفة الانسان للعالم بواسطة تحليل نشاطه العملي التحويلي. وبتعبير ادق يبدأ تاريخ نظرية المعرفة مع مسألة: ماهي المعرفة التي تطرح على الفلسفة؟ (افلاطون). مع ان مصطلح نظرية المعرفة ظهر بعد ذلك بوقت طويل. وفي تاريخ الفلسفة لعبت قضايا نظرية المعرفة دائما دورا مهما وفي بعض الاحيان احتلت المكانة المركزية. وفي بعض التيارات الفلسفية البرجوازية، كالكانتية والماخية، تختزل الفلسفة الى نظرية المعرفة. ان التطور السريع لطرق البحث العلمي الخاصة (مثلا: المنطق الرياضي والسايكولوجيا و...الخ) يؤدي في نظر بعض الوضعيين والعلماء الذين يشاركونهم الرأي الى تصفية نظرية المعرفة بوصفها علما فلسفيا. بيد ان المادية الديالكتيكية تؤكد على ان تطور الطرق العلمية الخاصة في البحث لايمكن من حيث المبدأ ان يبتز القضايا الفلسفية عن نظرية المعرفة، بل على العكس من ذلك فان هذا التطور يحفزها، ويطرح المزيد والمزيد من القضايا على نظرية المعرفة (مثلا دراسة امكانية اتمتة العمل الذهني و..الخ)

ان نظرية المعرفة المادية الديالكتيكية تستخدم في تطورها المعطيات التي تقدمها العلوم العرفانية الخاصة الحديثة وتكوّن اساسها الفلسفي والمنهجي.

الفرضية Hypothesis:

احتمال مرجح، تستدعي مواصلة البحث والتحقق عن صحتها والبرهنة على صوابها لتصبح نظرية علمية، وإلا نقحت او رفضت اذا كانت نتيجة التحقيق سلبية.

ان القواعد الاساسية التي تتحكم بصياغة الفرضية والتحقق منها هي:

١ ـ يجب ان تتفق الفرضية او على الاقل ان تنسجم مع جميع الحقائق المتعلقة بها.

٢ ـ من بين كثرة من الفرضيات المصاغة لتفسير سلسلة من الحقائق، ترجح الفرضية التي تشرح بلا لبس اكبر عدد من تلك الحقائق. ويمكن صياغة ما يسمى"بفرضيات عمل لشرح حقائق فرادى من السلسلة.

٣ ـ يجب صياغة اقل ما يمكن من الفرضيات لشرح سلسلة متصلة من الحقائق ويجب ان تكون الصلة بينها على اوثق ما يمكن.

٤ ـ عند صياغة الفرضية يجب ان لا يغرب عن البال: ان الفرضية ليست في الجوهر اكثر من احتمال مرجح.

٥ ـ ان الفرضيات التي يتناقض بعضها مع بعض ليس جميعها صادقا إلا اذا كانت تشرح جوانب وعلاقات مختلفة للموضوع الواحد نفسه.

الديمومة Continuity:

ان نشوء صور حركة المادة او تكونها هو ذاته يرينا ان كل صورة اعلا للحركة تلي صورا ادنى، لا تلغي هذه بل تحتويها وتخضعها لنفسها رافعا ايها الى مستوى كيفي جديد. ان الفهم الديالكتيكي للنفي، لايفترض فقط تصفية القديم بل الاحتفاظ ايضا بما هو تقدمي ومعقول مما تحقق في المراحل السابقة وتطويره الى حد ابعد، ومن دون ذلك تستحيل الحركة الى امام سواء في الوجود او في المعرفة.

مبدأ التطابق Correspondence Principal

احد المباديء المنهجية الاساسية المتحكمة في تطور العلم. ويعبر فلسفيا عن دياليكتيك المعرفة، الحركة من الحقيقة النسبية الى الحقيقة المطلقة، الحقيقة الاكمل فالاكمل. وقد صاغ بوهر هذا المبدأ في سنة ١٩١٣ عندما كانت تنهار تعاليم الفيزياء الكلاسيكية. وطبقا لمبدأ التطابق، فان تعاقب نظريات

العلوم الطبيعية الواحدة بعد الاخرى لايكشف فقط الفارق بينها، بل التواصل بينها ايضا. وهو ما يمكن التعبير عنه بدقة رياضية. ان النظرية الجديدة بحلولها محل النظرية القديمة، فانها لا تنفيها فقط بل تحتفظ بها ايضا بصورة معينة. وهذا يتيح الانتقال المعاكس من النظرية اللاحقة الى النظرية السابقة، او تطابقهما في مجال اقصى معين، حيث قد اصبح الفارق بينهما ضئيلا. ويمكن تعقب عمل مبدأ التطابق الى تاريخ الرياضيات والفيزياء وعلوم اخرى. ان التسلسل الطبيعي للنظريات القديمة والجديدة ناجم عن الوحدة الباطنية لمستويات المادة المختلفة من حيث الكيف. وهذه الوحدة لا تحتم وحدة العلم فقط، بل تبرهن ايضا على استحالة البرهان على صحة النسبوية Relatinism التي تنفي المعرفة الموضوعية، ومصرة على ان معارفنا ليست انعكاسا للعالم الموضوعي. والنسبوبة نظرية مشتركة بين الانظمة الفلسفية اللاأدرية والمثالية الذاتية.ولا تعترف المادية الديناميكية بنسبية المعرفة إلا بمعنى ان كل مرحلة تاريخية من مراحل المعرفة محدود بمستوى معين من تطور القوى المنتجة والعلم وليس بمعنى نفي الحقيقة الموضوعية. وتكشف النسبوية عن نفسها في الفلسفة البرجوازية المعاصرة في نفي القوانين التاريخية الموضوعية، وتستخدم كواسطة للنضال ضد الفلسفة المادية.

الديالكتيك Dialectics

الديالكتيك علم اعم القوانين المتحكمة بتطور الطبيعة والمجتمع والفكر.والديالكتيك العلمي يوحد عضويا القوانين المتحكمة بتطور الوجود وقوانين المعرفة. وجملتا القوانين متماثلتان ولا تختلفان الا من حيث الصورة، ولهذا السبب فان الديالكتيك المادي ليس خاصا "بعلم الوجود"(Ontology) فقط بل هو تعليم عرفاني ايضا، ومنطق يعتبر الفكر والمعرفة على السواء في حالة الصيرورة والتطور بقدر ما هي عليه الاشياء والظواهر، بقدر ما تصير عليه في سيرورة التطور، وكنزعة تحتوي على مستقبلها او ما ستؤل اليه.

وبهذا المعنى فان نظرية المعرفة ايضا يعتبرها الديالكتيك المـادي تاريخـا معممـا للمعرفة، وبناء عليه فان كل مفهوم، كل مقولة، هي تاريخية بطبيعتهـا، رغـم طابعها العام الى ابعد حد.

كان الديالكتيك المثالي لهيغل قمة تطور الديالكتيك قبل مـاركس "لاول مرة يقدم العالم بكليته، العالم الطبيعي والتاريخي والفكري، كسيرورة، أي انه باستمرار في حركة، تغـير، تحـول، تطـور، مـع محاولـة الكشـف عـن العلاقـة الباطنية التي تجعل من كل هذه الحركة والتطور كـلا مستديما"(انجلس-itnA pnirhuD ٣١-٣٢)

التناقض Contradiction

هو المقولة الرئيسة في الديالكتيك المادي. انه يكشف عـن القـوة المحركـة للتطور اجمع وعن مصدر التطور. ويحتوي التناقض على مفتاح جميع مقولات التطور الديالكتيكي ومبادئه، التطـور عـن طريـق تحـول التغـيرات الكميـة الى تغيرات كيفية، وانقطاع التدرج والطفرات، ونفي اللحظة الابتدائيـة للتطـور، ونفي هذا النفي بعينه، وتكرار بعـض معـالم الحالـة الاصيلـة واوجههـا، علـى مستوى اعلى. ومثل هذا الفهم بـالضبط هـو مـا يميز الديـالكتيك عـن جميـع انواع وجهات النظـر الارتقائيـة المبتذلـة، الـتي تطبـع بطابعهـا نظريـات اليـوم البرجوازية والاصلاحية.

قانون وحدة الاضداد Unity of Opposites:

قانون شامل للواقع ولادراكـه بـالعقل البشـري، وهـو يعـبر عـن جوهـر الديالكتيك الماركسي، "لبـه" وكـل موضـوع يحتـوي علـى الاضـداد. وتعـني المادية الديالكتيكية بالاضداد، العناصر، "الجوانب" و..الخ، الموجـودة:١ ــ في وحدة لا تنفصم. ٢ ـ يصد بعضها بعضا ليس فقط في الاوجـه المختلفـة، بـل في الوجه الواحد المتماثل ايضا. ٣ ـ يتداخل بعضها ببعض. لا توجد اضـداد بلا وحدة بينها، ولا وحدة بلا اضداد. والوحدة نسبية ووقتية اما اصطراعهـا

فمطلق. ويعلل قانون وحدة وصراع الاضداد "الاصل الباطني الموضوعي لكل حركة من دون ان يستدعي اية قوى خارجية، ويتيح لنا فهم الحركة باعتبارها حركة ذاتية (حركة من تلقاء الشيء نفسه، وليس من دافع خارجي) ان التفكير الديالكتيكي لا يفصّل الكل بتقسيمه الى اضداد، على نحو مجرد، بل يستوعبه كنظام عضوي تتداخل الاضداد فيه بعضها ببعض، وهكذا يجعل صيرورة التطور ممكنة. ويعبر هذا القانون باوجز صورة التضاد بين التفكير الديالكتيكي والتفكير الميتافيزيائي الذي يفسر "اصل الحركة كمجرد شيء يختلف عن الحركة نفسها، يأتي من خارجها، كما يفسر الوحدة كشيء موجود بموازاة التنوع والاختلاف.

وقد عللت الماركسية قانون وحدة وصراع الاضداد وعرفته على اساس الفلسفة المادية باعتباره قانونا للمعرفة (وقانون للعالم الموضوعي). ان التعليل المادي على اساس المبدأ القائل بتطابق الديالكتيك والمنطق ونظرية المعرفة يحول دون اختزال القانون الى "حاصل جمع امثلة" ويظهره كقانون شامل للوجود والتفكير. ان شمولية القانون الموضوعية هي اساس وظائفه المنهجية في سيرورة المعرفة. ان حل التناقضات يقدم البحث طبقا لمنطق الموضوع ذاته، ويعطي واسطة رشيدة لاستنباط مفاهيم جديدة وتركيبها بعضها مع بعض.

ان التناقض الديالكتيكي ليس مجرد وضع الطريحة Thesis والنقيضة Anti thesis الواحدة ضد الاخرى، بل ان الغرض منه الوصول الى حلها. ان فهم التناقض الديالكتيكي يعني فهم كيفية تطوره وحله. وتجري سيرورة التطور من خلال تصادم الاضداد الباطنية والخارجية. ولا يعتبر الديالكتيك الاضداد الخارجية جوهر متمايز منذ الازل بل نتيجة لانفصام الوحدة وبالتالي فهي مشتقات من الاضداد الباطنية.

ويقوم المذهب الماركسي للتطور على تطبيق هذا القانون على البحث عن التناقضات في المجتمع، وهو يعلل طريحة النضال الطبقي باعتباره القوة

المحركة لتطور المجتمع الطبقي، ومن هذه الطريحة يستنبط استنتاجاته الثورية. ان الاشتراكية هي النتيجة الطبيعية لتطور تناقضات الرأسمالية وحلها بواسطة الثورة الاجتماعية.

توجد انواع مختلفة من التناقضات وتوجد طرق شتى لحلها. ان خطورة هذا القانون الايديولوجية والتربوية تجد تعبيرها في واقع انه يعلمنا عدم اعتبار اية مرحلة من التطور الاجتماعي كشيء نهائي، ويتجه نحو تعددية الاشكال اللانهائية.

نفي النفي Negation of negation:

انه احد القوانين الاساسية في الديالكتيك وقد صاغه لاول مرة هيغل كتعبير عن استمرارية التطور والربط بين الجديد والقديم، واستعادة الجديد لبعض خصائص القديم. والنفي الديالكتيكي يكمن في القوانين الداخلية للظاهرة، ويعبر عن نفسه في نفي الذات. فتطور الموضوع يكمن في تناقضاته الداخلية (وحدة وصراع الاضداد). وتحل هذه التناقضات من خلال حركة الموضوع (النفي) وظهور النقيض الثالث بالنسبة للنقيضين السابقين. ولكن النقيضين السابقين لا ينتفيان فقط وانما يتداخلان ويظهر النقيض الثالث كحافظ لعناصرهما.

ان الظروف والمستلزمات التي اوجدت الموضوع في الوجود لاتختفي بظهوره بل انه يعيد انتاجها، هو بنفسه. وفي التفكير ايضا يعبر عن ذلك بواسطة نفي النفي، بواسطة الفهم الافضل للحقائق التي تم التوصل اليها، حقائق المرحلة الجديدة للنظرية. لايمكن تطور النظرية العلمية إلا بالاحتفاظ بالمعرفة المنفية وضمها الى النظرية الجديدة.

الفكر Thought:

عملية فعالة ينعكس خلالها العالم الموضوعي بمفاهيم واحكام ونظريات و...الخ.ويرتبط بحل المشاكل.وهو ارقى نتاج للمادة المنظمة خصيصا:

الدماغ.والفكر، وهو مرتبط ارتباطا لا انفصام له بالدماغ، لايمكن تعليله حصرا بنشاط الجاهز الفسيولوجي.ان منشأ الفكر لايقترن فقط بالنشوء والارتقاء البيولوجي، بل ايضا بالتطور الاجتماعي. وينشأ الفكر في عملية نشاط الناس الانتاجي ويعطي انعكاسا غير مباشر للواقع. وله طابع اجتماعي فيما يتعلق بمنشئه المعين وطريقة عمله ونتائجه. ويوجد تعليل ذلك في حقيقة ان الفكر يرتبط ارتباطا لاينفصم بنشاطات من قبيل العمل والكلام، الخاصة فقط بالمجتمع البشري. ومن هنا فان فكر الانسان يتحقق باوثق الارتباط مع الكلام. وتعبر اللغة عن نتائجه.والفكر يتألف من عمليات كالتجريد والتحليل والتركيب، وصياغة مهمات محددة واكتشاف حلول لها، وتقديم فرضيات وافكار و..الخ.وعملية التفكير تقدم باضطراد فكرة ما. ان حقيقة قدرة الفكر على اعطاء انعكاس معمم عن الواقع تجد تعبيرها في تمكن الانسان من مفاهيم عامة. وتقترن صياغة المفاهيم العلمية مع صياغة القوانين المطابقة لها. وحقيقة ان الفكر قادر على ان يعكس الواقع انعكاسا غير مباشر، تجد تعبيرها في تمكن الانسان من التوصل الى الاستدلالات، والاستنتاجات المنطقية والبراهين. وهذه المقدرة توسع نطاق المعرفة الى حد بعيد. انها تمكن الانسان من الانطلاق من تحليل الحقائق التي يمكن ادراكها مباشرة للتوصل الى معرفة ما لا يمكن ادراكه بواسطة الحواس. ان المفاهيم ومنظومة المفاهيم (النظريات العلمية) تسجل (تعميم) تجربة البشر، تمثل حاصل جمع معرفة الانسان وتصلح كنقطة انطلاق لمعرفة المزيد عن الواقع.

المطلق والنسبي Abslute & Reletive:

مقولتان فلسفيتان، المطلق المستقل، غير نسبي، تام بنفسه، غير مشروط، ثابت. اما النسبي فانه يصف ظاهرة ما بارتباطاتها وعلاقاتها مع ظاهرات اخريات، واعتمادها عليها.ان المادة وحركتها ككل، غير مشروطة وغير محدودة بأي شيء، انها سرمدية ولا تنضب، يعني انها مطلقة. ان العدد

اللانهائي من انواع المادة وحالاتها والصور العينية لحركتها، المتعاقبة الواحدة بعد الاخرى باستمرار، انما هي وقتية، متناهية، انتقالية، نسبية. كل شيء نسبي ولكنه جزء من كل، وبهذا المعنى فهو يحتوي في ذاته عنصرا من المطلق. فما هو نسبي في علاقة ما انما هو مطلق في علاقة اخرى و..الخ.

الحقيقة المطلقة والحقيقة النسبيةAbsolute and relative truth:

ان هذه النظرية ترد على السؤال الاتي:"هل تستطيع افكار الانسان المعبرة عن الحقيقة الموضوعية، ان تعبر عنها كلها في وقت واحد، ككل بلا شرط، بصورة مطلقة، ام فقط على وجه التقريب نسبيا؟ (لينين،المادية والنقد التجريبي)

بتطور المعرفة والممارسة يتعمق مفهوم الانسان عن الطبيعة ويصبح اكثر دقة واكمل. وعليه فان الحقائق العلمية نسبية. بمعنى انها لا تعطي معرفة كامله شاملة للموضوعات رهن الدراسة، وتحتوي على عناصر سوف تتغير وتصبح اكثر دقة وعمقا، وتستبدل بعناصر جديدة بتطور المعرفة، وفي نفس الوقت فكل حقيقة نسبية هي خطوة الى الامام نحو معرفة الحقيقة المطلقة، وسوف تحتوي، اذا كانت علمية حقا، على عناصر او ذرات من الحقيقة المطلقة. فلا يوجد حاجز منيع بين الحقيقة المطلقة والنسبية، بل تتألف الحقيقة المطلقة من المجموع الكلي للحقائق النسبية. ان النظريات التي تطورت سابقا يجري جعلها اكثر دقة وتطورا باستمرار.وتفند بعض الفرضيات (مثلا فرضية وجود الاثير) ويتأكد بعضها الاخر وتصبح حقائق ثابتة (مثلا فرضية وجود الذرة).

ان نظرية الحقيقة المطلقة والنسبية الماركسية هي ضد الحقيقة المطلقة الابدية للميتافيزياء، كما هي ضد النسبية المثالية التي تزعم ان تطور العلم ليس

سوى شاهد على تسلسل الاخطاء التي يحل احدها محل الاخر بالتتابع وليس هناك حقيقة موضوعية.

المجرد والعيني Abstract & Concrete:

المجرد جزء من كل، وحيد الجانب، بسيط، اولي، غير متطور. والعيني متعدد الجوانب، مركب، متطور، كل. وقبل هيغل كان العيني يُفهم بالاساس على انه تعددية صور الاشياء والظواهر، فرادى، المدركة حسيا، والمجرد كمنتوج ذهني فقط. وكان هيغل اول من استخدم مقولتي المجرد والعيني بذلك المعنى الفلسفي المعين، الذي طور فيما بعد في الفلسفة الماركسية: العيني كمرادف للترابطات الباطنية الداخلية للكلي المجزأ. اما المجرد فليس المضاد الميتافيزيائي للعيني بل مرحلة من تطور العيني نفسه، انه العيني غير الظاهر، غير المتطور. ويقارن هيغل النسبة بين المجرد والعيني بالنسبة بين البرعم والثمرة، او بين البلوطة وشجرة السنديان. ومع ذلك فان هيغل نفسه يرى ان العيني لا يصف إلا الروح، الفكر، الفكرة المطلقة، اما الطبيعة وعلاقات الناس الاجتماعية فهي "وجود اخر"، هي تجليات تجريدية لأوجه او لحظات منفردة في حياة الروح المطلق. وفي الفلسفة الماركسية نجد الواقع المادي، عالم الاشياء المحدودة المدركة حسيا، هي الحاملة للعيني. ان عينية الشيء هي الترابط الموضوعي بين جوانبه، وهي التي تحدد بالعلاقة الجوهرية التنظيمية التي يقوم عليها، ان العيني في المعرفة هو انعكاس هذا الترابط الحقيقي على منظومة من المفاهيم تعيد انتاج المضمون الموضوعي للشيء الذي يجري ادراكه. ان المجرد في الحياة الواقعية هو التعبير عن غير الكل، غير المكشوف بالتمام، غير المتطور بالتمام، والطبيعة المحدودة لاية كسرة من الكل، لان الكسرة معزولة، مفصولة عن علاقاتها بالبيئة، وعن تاريخها المقبل. فالمعرفة المجردة تُعارض بالمعرفة العينية لأنها وحيدة الجانب، تعبر فقط عن جانب خاص واحد للشيء بمعزل عن علاقته بالجوانب الاخرى، بمعزل عما يقرر الطبيعة المعينة للكل.

ان المعرفة النظرية العلمية حقا تتكون من عملية إلتفكير التي تنطلق من التعددية الصورانية الحسية للعيني وتتوصل الى اعادة انتاج الشيء بكل تعقيداته.

ان منهج اعادة انتاج الشيء بكليته نظريا في الوعي هو الارتفاع من المجرد الى العيني، وهذه هي الصورة العامة التي تتكشف فيها المعرفة العلمية،الانعكاس المنظومي للشيء في مفاهيم. ان الارتفاع من المجرد الى العيني، وهو وسيلة لربط المفاهيم بنظام متماسك يعكس التجزئة الموضوعية للشيء الذي تجري دراسته، ووحدة جميع جوانبه، يفترض سلفا حركة اولية من العيني (المدرك بالملاحظة) الى المجرد حيث تصاغ المفاهيم التي تعكس اوجها وخواصا فرادى من موضوع الدراسة، لايمكن فهمها هي ذاتها الا باعتبارها اجزاء من الكل محددة بمضمونها المعين. وبناء عليه من الضروري التمييز بين العيني، وهوموضوع الدراسة، نقطة انطلاق البحث (العيني الحسي) وبين العيني الذي هو الثمرة النهائية للبحث، نتيجته، أي المفهوم العلمي للشيء (العيني الذهني).

التجريد Absraction

ينطلق التفكير من العيني الى المجرد- شرط ان يكون صائبا- لايبتعد عن الحقيقة بل يقترب منها. ان المجردات: كالمادة، القانون الطبيعي، القيمة و..الخ، وباقتضاب جميع المجردات العلمية، الصائبة، الجدية، غير المنافية للعقل، انما تعكس الطبيعة على نحو اعمق واصدق واكمل (لينين-الدفاتر الفلسفية بالانكليزية ص ١٩٧)

ان الممارسة هي المقياس لاختبار الطبيعة العلمية الصادقة للتجريدات التي ادخلت الى العلم. ان التجريد هو تفكيك الشيء، افراد جوانبه الجوهرية وتحليلها من جميع الاوجه بصورتها "النقية"، كل ذلك هو ثمرة عمل التجريد الذهني.

الادراك Cognition

"من الملاحظة الحية الى الفكر المجرد، ومنه الى الممارسة-هو الطريق الديالكتيكي لادراك الواقع" (لينين-Coll. w. V.38 P 171)

ان نظرية المعرفة الديالكتيكية المادية ترى في النشاط العملي اساسا للادراك ومعيارا للمعرفة. وبقدر ما تكون الممارسة محددة لا لبس فيها بحيث تميز الحقيقة الموضوعية من الخطأ، لكي تثبت صحة معرفتنا، فانها في نفس الوقت سيرورة تطورية، محدودة في كل مرحلة معينة بقدرات الانتاج ومستواه التكنيكي و..الخ. وهذا يعني ايضا ان الممارسة ايضا نسبية، وبالنتيجة فان تطورها لا يسمح بتحويل الحقيقة الى دوغما، الى مطلق ثابت لا يتغير.

لايمكن اعادة تكوين المجتمع القديم ثوريا وبناء المجتمع الجديد من دون المعرفة الحقة، سلفا، بالقوانين الموضوعية التي تسود الطبيعة والتطور الاجتماعي.

المنطق الديالكتيكي Dialectical Logic

التعليم المنطقي للمادية الديالكتيكية، علم قوانين وصور الانعكاس الذهني لتطور العالم الموضوعي وللقوانين المتحكمة في معرفة الحقيقة. ومن الناحية العلمية ظهر المنطق الديالكتيكي كجزء من الفلسفة الماركسية، ولكن عناصره برزت في الفلسفة القديمة ولا سيما في تعاليم هيرقليطس، افلاطون، وارسطو واخرين. ولاسباب تاريخية ساد المنطق الصوري لفترة طويلة كتعاليم لقوانين واشكال التفكير. وفي القرن السابع عشر تقريبا كشف تطور العلوم الطبيعية والفلسفة قصوره واوضح الحاجة لتعاليم جديدة حول المباديء العامة ونهج التفكير والمعرفة فبرز عدد من الفلاسفة: فرانسيس بيكون، ديكارت، ليبنتز وآخرين وكان اكبر وضوح في هذا الميل في الفلسفة الالمانية الكلاسيكية (كانت مثلا ميز بين المنطق العام والمنطق الخارق) ولكن الفضل المميز في

تطور المنطق الديالكتيكي يعود لهيغل، الذي انتج الادراك الاسبق للمنطق الديالكتيكي الذي كان يلتقي بنظرته المثالية.

لقد عممت التعاليم الماركسية كل العناصر القيّمة في التطور السابق لتجربة الوعي الانساني الواسعة وصبتها في علم محدد للمعرفة.

والمنطق الديالكتيكي لا يرفض المنطق الصوري بل يكشف محدوديته، ومكانه، ودوره في دراسة قوانين الفكر وصوره. ففي حين ان المنطق الصوري هو علم قوانين وصور انعكاس الثبات في الفكر والسكون في الموضوعي، فان المنطق الديالكتيكي هو دراسة الانعكاس على قوانين الفكر وصوره لسيرورات التطور وللتناقضات الباطنية في الظواهر، ولتغيرها من حيث الكيف، وانتقال الواحدة الى الاخرى و..الخ. ويستحيل المنطق الديالكتيكي كعلم الا على اساس المنهج المادي الديالكتيكي، ويعمل في الحال كما لو كان بديله العيني، لو صح التعبير، في بحث قوانين الانعكاس وصوره في الفكر، تجلي اللامتناهي في الحركة على المتناهي، وحدة اللامتناهي والمتناهي في الحركة، الباطني والظاهري و..الخ. ان المهمة الاساسية للمنطق الديالكتيكي هي البحث عن كيفية التعبير بمفاهيم، على افضل وجه، عن عمل قوانين الديالكتيك في الاشياء والموضوعات و..الخ. وترتبط بهذه المهمة، المهمة الاساسية الاخرى للمنطق الديالكتيكي وهي تمحيص تطور المعرفة ذاته. ويطابق المنطق الديالكتيكي قوانين تطور الفكر وصوره، من خلال تطور المعرفة مع الممارسة الاجتماعية التاريخية. ان منهج الارتفاع من المجرد الى العيني يستخدمه المنطق الديالكتيكي باعتباره مبدءا منطقيا عاما. والمبدأ الاخر هو وحدة التاريخي والمنطقي. وكلا المبدأين مترابط ومتداخل. وينتقل الفكر من سطح الاشياء والموضوعات الى جوهرها، وعندئذ ايضا يدرك تجليات الحقيقة. ولدى التمحيص المنطقي للعملية او الظاهرة او لجانب منها، يجري تناولها بصورتها الناضجة المتطورة. وهذا يجعل من الممكن فهم كلا من

الماضي الموجود في الحاضر على صورة تابع، والمستقبل بما انه قد وجد في الحاضر وان يكن بصورة رشيمية، كجنين غير متطور بعد.

وهكذا فان المنطق الديالكتيكي يبحث في سيرورات التطور في قوانين الفكر وصوره، انما يبحث ايضا تطور الفكر. ويتغير نظام مقولاته مع التطور التاريخي للمعرفة والممارسة البشرية. وفي العلوم المعاصرة تلعب دورا كبيرا الانظمة المنطقية الصورية والنظريات المنطقية الصورية المستقلة التي تدرس مختلف اوجه الفكر ومهماته. ان المنطق الديالكتيكي هو الاساس المنطقي العام للمعرفة البشرية، انه النظرية المنطقية العامة التي يمكن ويجب استخدامها لشرح جميع النظريات الخاصة والعينية، لشرح اهميتها ودورها.

النشاط Activity

الرابطة الخاصة بالانسان التي تربطه بالعالم، السيرورة التي في مجراها يعيد الانسان انتاج الطبيعة ويحولها تحويلا خلاقا، وبذلك يجعل نفسه ذات نشاط، والظاهرة الطبيعية موضوع نشاطه. وبفضل النشاط، او العمل ارتفع الانسان من العالم الحيواني، واحتفظ في السيرورة التاريخية جميع الخواص الانسانية وطورها. وفي مجرى النشاط يعالج الانسان الاشياء طبقا لطبيعتها وخواصها، ويكيفها طبقا لحاجاته، ويجعلها معيارا لنشاطه واساسا له. ان الانسان في تفاعله مع الطبيعة يدخلها بالتدريج في ثقافته المادية والروحية. وليست التغيرات في العالم الخارجي سوى مقدمة والظروف لتحسين الانسان لنفسه. وفي مجرى الانتاج يعيد الناس دائما انتاج انفسهم ولا يبقوا على ما كانوا عليه عندما بدأوه. وكما قال ماركس:"انهم يخلقون قدرات جديدة ومفاهيم جديدة وتعامل جديد وحاجات جديدة وكلام جديد" (Pre-Capitalis Socio-Economic Formation P 109) وهكذا فان النشاط كسيرورة كاملة تشمل الاتصال ايضا. ان جوهر النشاط هو الاستمرار الاجتماعي للوجود المنقول من جيل الى جيل. ومنبع النشاط يكمن في قواه المحركة.

والمرحلة الاولى للنشاط في التاريخ هي انتاج الادوات بمساعدة الادوات. والنشاط قائم على قدرة الانسان على الفعل وبصورة تجسيد الاشياء بكونه سيرورة التحول الدائم من الاولى (القدرة) الى الاخير (التجسيد) والعكس بالعكس. وقوانين التاريخ ليست في آخر الحساب سوى قوانين النشاط. وان تكن في المجتمع الطبقي، حيث يوجد تقسيم العمل واستلابه، يبدو انها تتحكم بسلوك الناس متنكرة بزي قوى مسلوبة خارجية.

ان النشاط النظري، شأن العملية المادية والتكنيكية لتحويل الشيء، ليست سوى العناصر المستقلة نسبيا عن النشاط الكلي باعتباره نظاما تقوم فيه عملية التحول المادي بتحديد التحول الفكري. وهكذا فان النشاط النظري عملية خلاقة اجتماعيا هدفها تغيير عالم الثقافة الانسانية. ويخلق تقسيم العمل الوهم القائل ان الوظيفة "العملية الخالصة" والوظيفة "النظرية الخالصة" هما نشاط بحد ذاته. وفي ظل الشيوعية فقط يكون النشاط نشاطا ذاتيا كاملا لكل شخص، غاية الحياة وحاجتها.

يجب التمييز بين الصورة الاولية للنشاط النفسي وبين صورته العليا. فالصورة الاولى هي النموذج الحيواني وقوامه تكييف الجسم بالغريزة مع البيئة. اما الصورة العليا للنشاط التي تنبع من الصورة الاولية وتحولها، انما هي خاصة بالانسان ليس إلا. والصفة الخاصة المميزة للصورة العليا للنشاط هي مجهود الانسان المتعمد لتحويل بيئته. ولنشاط الانسان طبيعة اجتماعية، وتحدده ظروف الحياة الاجتماعية. ويمكن لنشاط الانسان النفسي ان يكون خارجيا او باطنيا. ويتكون الاول من عمليات خاصة بالانسان مع الاشياء الموجودة بواسطة حركة الذراعيين واليدين والاصابع والرجلين. اما النشاط الباطني فيجري في الدماغ بواسطة "الافعال الذهنية" حيث يتعامل الانسان ليس مع اشياء قائمة وليس بواسطة حركات جسمانية بل مع صورها الحركية. ان النشاط الباطني يخطط النشاط الظاهري. ان الاول يقوم على اساس الاخير ويحقق نفسه بواسطته. وبسبب تقسيم العمل، يجري التفريق بين

الصورتين النظرية والعملية للنشاط الانساني. وطبقا لنسق حاجات الانسان والمجتمع يقوم ايضا نسق النماذج العينية للنشاط. يشتمل كل منها اعتياديا عناصر من النشاط الظاهري والباطني، العملي والنظري.

الاساس والبنية الفوقية Basis & Super struvture

من مقولات المادية التاريخية صيغت لتمييز العناصر البنيوية الاساسية لكل تشكيلة اجتماعية اقتصادية. وتستخدم هاتان المقولتان لتعيين المسألة الاساسية في الفلسفة في حالة تطبيقها على المجتمع. وتبرهن الماركسية على ان الاساس يكمن تحت الافكار والمؤسسات والسنن والمنظمات السائدة في المجتمع. ان الاساس مجموع علاقات الانتاج الملازمة لهذا المجتمع. وتتألف العلاقات الانتاجية بالضرورة طبقا لمستوى معين للقوى المنتجة. اما البنية الفوقية فهي نظام الظواهر المترابطة التي يولدها الاساس وتؤثر فيه بدورها تأثيرا فعالا وتشمل البنية الفوقية: ١-مجموع الظواهر الفوقية: الافكار والمشاعر والعواطف والنظريات والتعاليم، التي تنقسم الى سياسية وحقوقية واخلاقية ودينية وجمالية وفلسفية.٢- مجموع العلاقات الانسانية وهي خلافا للعلاقات المادية والانتاجية تتشكل بصورة مستقلة عن ارادة الناس ووعيهم وتسمى ايديولوجيا لانها تتكون طبقا للصورة المبينة اعلاه للوعي الاجتماعي وتظهر كعلاقات سياسية وحقوقية واخلاقية وغيرها من العلاقات الاجتماعية. ٣- مجموعة المؤسسات والمنظمات السياسية (الاحزاب والدولة) والحقوقية (المحاكم) والدينية(الكنيسة) و..الخ.

ان مفهوم الاساس مترابط مع مفهوم البنية الفوقية. فالاساس يحدد كيفيا التشكيلة المعينة، مميزا اياها عن التشكيلات الاخرى، في حين ان البنية الفوقية تميز الحياة الاجتماعية والروحية لكل تشكيلة. وبمعزل عن مفهوم التشكيلة يصبح الاساس والبنية الفوقية ميتيين كالاعضاء المفصولة من جسم الانسان. وفي التشكيلات التناحرية توجد البنية الفوقية بجميع افكارها وعلاقاتها

الايديولوجية ومؤسساتها ومنظماتها بوصفها ثمرة الصراع الطبقي ونتيجته وسلاحه. ان ظواهر البنية الفوقية مستقلة نسبيا وبناء على ذلك تستطيع ان تؤثر تأثيرا فعالا على جميع جوانب الحياة الاجتماعية وبضمنها الاساس. ان التحول الثوري من تشكيلة الى اخرى يعود قبل كل شيء الى حلول اساس بدل آخر وبنتيجة ذلك تحدث ثورة سريعة الى هذا الحد او ذاك في البنية الفوقية كلها.

الانسانية Humanism

منظومة الاراء على اساس احترام كرامة الانسان وحقوقه وقيمته باعتباره شخصية والاهتمام برعايته وتطوره الكلي وايجاد ظروف صالحة لحياته الاجتماعية. والانسانية مضادة للتعصب والقسوة والتزمت واللاتسامح وازدراء اراء الاخرين ومعارفهم. وقد نمت الى حركة ايديولوجية متميزة في عصر النهضة، في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، عندما تبلورت كعنصر من الايديولوجية البرجوازية، معارضة للاقطاعية واللاهوت القروسطية. وقد ارتبطت الانسانية ارتباطا وثيقا بالاراء المادية التقدمية. وقد نادت بحرية الفرد وعارضت التقشف الديني، ودافعت عن حق الانسان بالتمتع الحسي وتلبية الحاجات الدنيوية. وقد ساهم في صياغة الاراء الدنيوية البعض من ابرز إنسانيي عصر النهضة من امثال بطرارك ودانتي وبوكاتشيو وليونادودافنشي وارامـوس وديسيدريوس وبرونو ودايليس ومونتانبية وشكسبير وبيكن وغيرهم. وقد بلغت الانسانية البرجوازية ذروتها في اعمال منوّري القرن الثامن عشر الذين رفعوا عاليا شعارات الحرية والمساواة والاخاء، واعلنوا حق البشر في تطوير "جوهرهم الطبيعي بحرية. ومع ذلك فالانسانية البرجوازية حتى في اصفى تجلياتها، تعاني من النقص. إذ تؤسس المثل العليا للانسانية على الملكية الخاصة وعلى الفردية. ومن هنا التناقض الذي تعجز البرجوازية عن حله بين شعارات الانسانية وتطبيقها العملي في

المجتمع الرأسمالي. ويسعى الايديولوجيون البرجوازيون كقاعدة عامة في محاججتهم ان يخفوا رذائل الراسمالية وجوهرها اللانساني.

ومنذ بدء مذهب الانسانية، تقريبا، ظهر فيها تيار مور وكامبلا ومنتسر واخرون، بعدئذ، وهم دعاة الاشتراكية الطوباوية المعبرة عن مصالح الجماهير العاملة. وقد رأوا طبيعة المجتمع الرأسمالي اللانسانية. وهاجموا رذائله وطالبوا بالمساواة بالملكية. ولكن جهلهم بقوانين التاريخ الموضوعية عجزوا عن اكتشاف الاساليب والوسائط لتحقيق المجتمع العادل. وتختلف الانسانية الاشتراكية اختلافا اساسيا عن الانسانية البرجوازية، فهي مبنية على الفلسفة الماركسية اللينينية ونظرية الشيوعية العالمية. وهي تشترط تحرير الشعب العامل من الاضطهاد الاجتماعي وبناء الشيوعية كشرط جوهري لتطور جميع الناس تطورا كليا ومنسجما، والحرية الحقيقية للفرد. وعليه فان الانسانية الاشتراكية صادقة لأنها مؤسسة على ضرورة النضال من جانب الطبقة العاملة وسائر الشعب العامل ضد الطبقات الاستغلالية ومن اجل الشيوعية التي توجد الظروف الضرورية لانتصار مثل الناس الانسانية. والغاء الملكية الخاصة والاستغلال تؤسس الاشتراكية علاقات انسانية حقا، مؤسسة على مبدأ ان الانسان صديق الانسان ورفيقه واخوه. ان الشيوعية هي التجسيد الاسمى للانسانية، لانها تمحو كل بقايا عدم المساواة وتؤسس مبدأ "من كل انسان ما يستطيعه ولكل انسان ما يحتاجه" فتحقق الشروط الضرورية للتطور الشامل للفرد.

المادة Materia (عن المادية والنقد التجريبي – لينين)

ان جوهر "الازمة المعاصرة في الفيزياء" يتلخص في كون الفيزياء القديمة رأت في نظرياتها "معرفة فعلية للعالم المادي"، أي انعكاسا للواقع الموضوعي، اما التيار الجديد في الفيزياء، فإنه لا يرى في النظرية سوى رموز وعلامات واشارات لاجل النشاط العملي، أي انه ينكر وجود الواقع الموضوعي،

المستقل عن وعينا والذي يعكسه وعينا. ولـو ان ري استعمل تعابير فلسفية صحيحة، لكان عليه ان يقول: ان نظرية العرفان المادية، الـتي كـانت الفيزيـاء السابقة تتقبلها بصورة عفوية، قد حلـت محلهـا النظريـة المثاليـة واللاعرفانيـة، الامر الذي استغلته الايمانية رغم انف المثاليين واللاعرفانيين. (ص ص ٣٢٩-٣٣٠)

فهو(ري) يبين ان الفيزيائيين المعاصرين ينقسمون حسب ميولهم العرفانية الى ثـلاث مـدارس: المدرسـة الطاقيـة او المفاهيميـة(elleutpecnoC الفكـرة العامة او المفهوم الخالص) والمدرسة الميكانيكية او الميكانيكية الجديـدة الـتي لا تزال تتمسك بها اكثرية الفيزيائيين الساحقة، والمدرسة الانتقادية القائمـة بـين الاولى والثانية. اما ما هو كنه الخطين الاساسيين (لان الثالث ليس مستقلا بل متوسطا) فيتبين من اقوال ري التالية:

"ان النزعة الميكانيكية التقليدية قد بنت نظام العالم المادي، وقد انطلقـت في المذهب عن بنية المادة من عناصر متجانسة ومتماثلة نوعيا. علما انـه كـان يجـب اعتبـار العنـاصر،عنـاصر لا تتغـير ولا تحـترق و..الخ. ان الفيزيـاء بنـت صرحا فعليـا مـن مـواد فعليـة واسمنـت فعلي، وكـانت في متنـاول الفيزيـائي العناصر المادية واسباب واسلوب فعلهـا، وقوانـين فعلهـا الفعليـة. ان تغـيرات هذه النظـرة الى الفيزيـاء تتجسـد علـى الاغلـب في نبـذ القيمـة الايديولوجيـة للنظريات وفي التأكيد بشكل خارق على الاهمية الظاهرية للفيزياء. ان النظرة المفاهيميـة تتنـاول التجريـدات الخالصـة وتفتـش عـن نظريـة تجريديـة خالصـة تستبعد قدر الامكان، فرضية المادة.

"ان مفهوم الطاقة يصبح اساسا تحتانيا للفيزياء الجديدة ولهذا يمكن تسمية الفيزياء المفاهيمية، اساسا، بالفيزياء الطاقية.

ان كنه ازمة الفيزياء المعاصرة يكمن في تحطيم القوانين القديمة والمبـاديء الاساسـية القديمـة، في نبـذ الواقـع الموضوعـي القـائم خـارج الوعـي، أي في

الاستعاضة عن المادية بالمثالية واللاعرفانية. "المادة زالت" هكذا يمكن الاعراب عن الصعوبة الاساسية والنموذجية فيما يتعلق بكثير من المسائل الجزئية، والتي خلقت هذه الازمة.

"المادة تزول" هذا يعني انه يزول ذلك الحد الذي كنا نعرف المادة به حتى الان، وان معرفتنا تمضي الى اعمق، كذلك تزول خواص المادة التي كانت تبدو من قبل مطلقة، ثابتة، اولية، (اللانفاذية، الجمود، الكتلة، وخلافها) والتي تنكشف الآن بوصفها نسبية، ملازمة لبعض حالات المادة فقط. لان "الخاصة"الوحيدة للمادة التي ترتبط المادية الفلسفية بالاعتراف بها انما هي:ان تكون واقعية وموضوعية ان توجد خارج وعينا.(ص ص ٣٣٤-٣٣٥)

ان خطأ الماخية على العموم والفيزياء الجديدة يتلخص في تجاهل اساس المادية الفلسفية هذا وفي تجاهل الفرق بين المادية الميتافيزيائية والمادية الديالكتيكية. فان الاعتراف بعناصر ما ثابتة لا تتغير "بجوهر الاشياء الذي لا يتغير وما الى ذلك، ليس المادية الديالكتيكية، بل هو المادية الميتافيزيائية، أي المنافية للديالكتيكية.

ولطرح المسألة من وجهة النظر الصحيحة الوحيدة أي من وجهة النظر المادية الديالكتيكية، يجب ان نسأل: اتوجد الالكترونات والاثير وما الى ذلك خارج الوعي الانساني بوصفها واقعية موضوعية ام لا؟ من هذا السؤال سيتعين على علماء الطبيعيات ان يجيبوا وهم يجيبون دوما وبدون تردد:اجل! كما يعترفون بلا تردد بوجود الطبيعة قبل الانسان وقبل المادة العضوية. وبذلك تحل المسألة في صالح المادية. لان مفهوم المادة، كما سبق وقلنا لا يعني من الناحية العرفانية أي شيء غير الواقعية الموضوعية الموجودة بصورة مستقلة عن الوعي.(ص ص ٣٣٥-٣٣٦)

المحتوى

تقديم: سعاد جبري ٥

وحدة المنهج والنظرية ١١
تقييم: هادي العلوي ١٣
الفصل الاول: "وحدة المنهج والنظرية". ٢١
الفصل الثاني: "المرحلة اللينينية من الماركسية ٤٥
الفصل الثالث: هل "مصيبة الماركسيين العرب اكبر"؟ ٧١
الفصل الرابع: مناقشة اولية مع الاستاذ هادي العلوي ١٠٣

مقتطفات من كتابات زكي خيري ١٠٧
ملحوظة ١٠٩
مداخلة زكي خيري في ندوة برلين العالمية ١١٢
رسالة زكي خيري الى هادي العلويفي ١١٩

اطروحات ١٣٥
ملحوظة ١٣٧
الماركسية اللينينية ليست عقيدة جامدة، انها منهج للعمل ١٣٩
مقولات فلسفية /ترجمات من القاموس الفلسفي ١٤٤

زكي خيري يتحدث

انا شيوعي عراقي مخضرم، مقتنع بشيوعيتي، ارفض التخلي عن الماركسية اللينينية، كما ارفض عدم تطويرها على السواء، ومع التجديد على اساسها بقناعة وثقة. انني ضد التبسيطيين الذين يزعمون ان الخيانة وحدها هي المسؤولة عن الانهيار، إذ لم يكن الخونة يوما اقوى من الشعب الواعي والتنظيم الثوري

لقد قدمت حركتنا تضحيات رهيبة بفضل روحها الثورية الواعية و لم تذهب هذه التضحيات سدا، إذ ما من حركة اخرى، على مر العصور والاجيال قدمت ما قدمته الحركة الشيوعية، فقد انارت السبيل للبشرية على طريق التقدم. و لم يشهد التاريخ حركة اجتماعية بلا انتكاسات ولا كوارث. ان ارواحنا هي روح شعبنا الكادح الثائر، وقد هذبته الشيوعية حيثما كان لها حضور ووجهته ونظمته، وبهذه الروح نستطيع الصمود بوجه اسوأ احباط في تاريخ حركتنا العالمية وتاريخ شعبنا.

والنهوض من الكبوة رهن بايماننا بعدالة قضيتنا ووعينا المتجسد بالماركسية اللينينية والتجديد الدائب.

مؤلفاته:-

١- ربع قرن من تاريخ الحركة النقابية في العراق (١٩٥٤)

٢- مسائل في الاصلاح الزراعي (١٩٥٩)

٣- دراسات في تاريخ الحزب الشيوعي العراقي، مع رفيقة حياته ونضاله سعاد خيري (١٩٨٤)

٤- الحرب العراقية - الايرانية وقضايا الثورة (١٩٨٧)

٥- وحدة النظرية والمنهج (١٩٩٢)

٦- صدى السنين في ذاكرة شيوعي عراقي مخضرم (١٩٩٥)

٧- صدى السنين في كتابات شيوعي عراقي مخضرم اعداد سعاد خيري (١٩٩٦)

مراجعات ماركسية

في دراسة لاحدث مشكلات الماركسية - اللينينية رد بها على مقالة للكاتب السوري عطية مسوح في شهرية "الثقافة الجديدة" العراقية، تناول زكي خيري (٨٣ سنة) قضايا متنوعة ذات اهمية راهنة، موظفا تجربته العريضة في الحركة الشيوعية واطلاعه الواسع على مصادر الماركسية الاولى، في مسعى لاضاءة الجوانب الملتبسة من معضلات المرحلة الجارية. بدقة منهجية ملموسة مع قدرة على الفرز الجدلي ما بين تلوينات الحقائق والوقائع، تعززها صلابة في المبدأ ونزاهة في الفكر واخلاص للاهداف الجليلة التي ارتهن بها تاريخ القائد العراقي، احد مؤسسي الحركة الشيوعية في العراق والاكثر توغلا في واقع الحياة والمجتمع من بين جميع رفاقه الاحياء.

زكي خيري واثق من مستقبل الاشتراكية، ثقة الكتب المقدسة بوراثة الارض. وهو يعتبر النظام الامبريالي القائم، والمهيمن على العالم الارضي لحظة عابرة في مسيرة تاريخ لا متناهية. او كما يسميها المثل الشعبي العراقي "عرس واوية" ومن منظور عدائه الثابت والمتجدد للرأسمالية ونغليها الكبيرين : الاستعمار والصهيونية، فهو يرسم جنبا الى جنب مع القلة الصامدة، الخط الصحيح لحركة شيوعية تتخلص من اوضار البريسترويكا وتستعيد موقعها في ساحة النضال الوطني ضد نفس العدو: الامبريالية العالمية بقيادة الولايات المتحدة، مع التمسك باساسيات الشيوعيين في الدمج الدياليكتيكي بين النضال الوطني والطبقي.

هادي العلوي